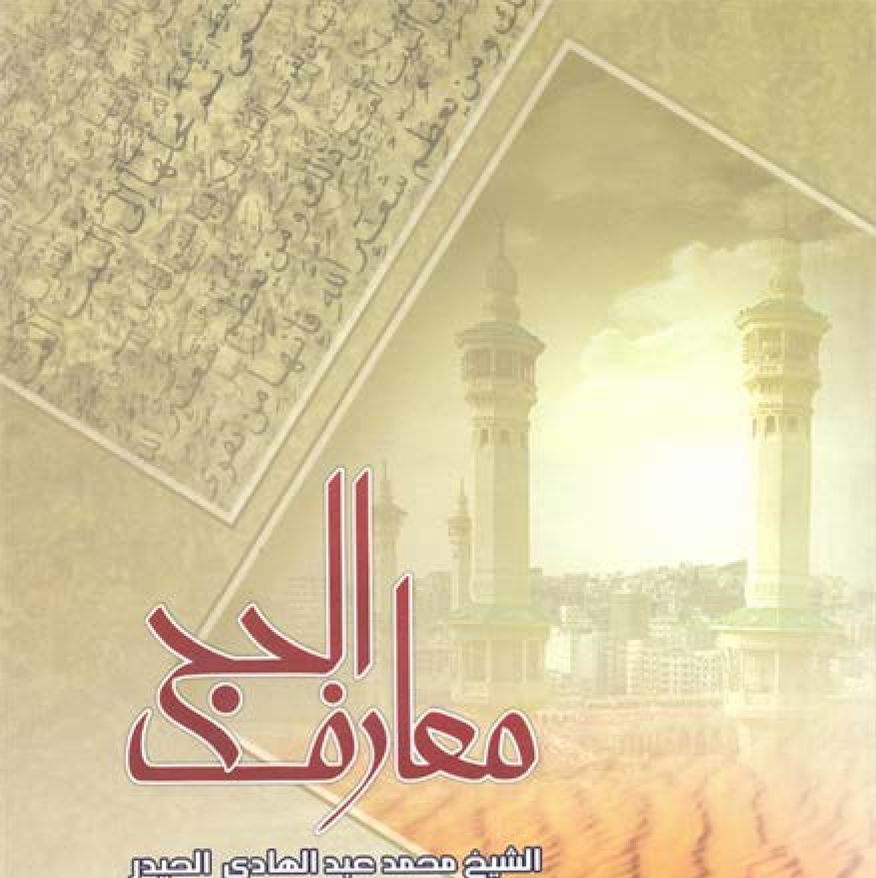


معارف الحج

الشيخ محمد عبد الهادي الحيدر

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

معارف الحج

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

اسم الكتاب: معارف الحج

تأليف: الشيخ محمد عبد الهادي الحيدر

الناشـــــر: مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

الطبعة الأولى: شوال/١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

لبنان/بيروت/الغبيري ص ـ ب ٢٥/٢٧٨

info@Omalqora.com

معارف الحج

تاليف

الشيخ محمد عبد الهادي الحيدر

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين

المقدمة

يعتبر الحج من أطول العبادات الإسلامية وأشقها على المكلفين، فهو ذو أجزاء كثيرة ومختلفة يحتاج أداؤها زمان طويل ومكان متعدد مما لا نجده في تكليف آخر.

فعلى سبيل المثال، الصلاة لها أجزاء معدودة وزمان محدود، ولا يختص أداؤها في مكان خاص، وكذا الصوم الذي لا يتجاوز الأربع عشرة ساعة في أكثر الأحوال لأدائه وامتثاله، بخلاف الحج الذي يختلف عنهما في الزمان والمكان والأجزاء.

كما أنّ الحج من أغرب وأعجب العبادات الإسلامية التي تثير العجب باعتباره عبادة غير مألوفة، بدءاً من التجرد من الثياب المعتادة وارتداء قطعتين من القماش بشروط محددة، والإحرام من مكان مخصوص يسمى (الميقات)، ثم الطواف حول البيت (الكعبة) سبعة أشواط، ثم السعي بين جبلين (الصفا والمروة)،

ثم التقصير الذي هو أخذ شيء من شعر الرأس أو البدن أو قص شيء من الأظافر، ثم الإحرام مرة أُخرى ليتوجه الحاج بعدها إلى صحراء قاحلة (عرفات) فيبقى فيها من الزوال إلى الغروب، ثم الإفاضة إلى مخصوص (المزدلفة) ليبيت ليلته فيها إلى الصباح، ثم الإفاضة عند طلوع الشمس مرة أُخرى إلى وادي منى، ثم أداء مجموعة من الأعمال وهي: رمي أعمدة منصوبة بسبع حصيات، ثم ذبح قربان بشروط خاصة، ثم الحلق أو التقصير، ثم الرجوع إلى مكة ليؤدي فيها طوافين وسعياً، ثم الرجوع مرة أُخرى إلى وادي منى ليبقى فيها يومين يؤدي في كل منهما شعيرة الرمي.

فكل تلك الأعمال ـ التي أصطلح عليها شرعاً بالمناسك ـ تثير التساؤل والعجب، فهل هي مجرد طقوس شكلية وشعائر جامدة يجب أن تؤدى بصورة تعبدية، دون النظر إلى ما قد تتضمنه من جوانب روحية ومعنوية، أم لا بد أن يعيش المكلف من خلال أدائها أهدافاً وغايات سامية؟

والحق أنّ كل العبادات في الإسلام تحمل معها أهدافاً وغايات نبيلة تراد منها، كما أنّها تتضمن جوانب روحية ومعنوية عالية.

فبعض أهداف ـ الصلاة التي هي عمود الدين ـ هو النهي عن الفحشاء والمنكر، وقد أشار الباري عزّ وجلّ إلى ذلك بقوله: **﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾**(١). وكذلك قوله تعالى: **﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾**(٢). ولتوضيح هدف الذكر، يقول تعالى: **﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾**(٣).

وفي هدف الصوم، يقول تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**(٤).

وفي هدف الزكاة، يقول تعالى: **﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**(٥).

---

(١) العنكبوت : ٤٥.
(٢) طه : ١٤.
(٣) الرعد : ٢٨.
(٤) البقرة : ١٨٣.
(٥) التوبة : ١٠٣.

ولا تشذ عبادة الحج عن هذه القاعدة فشأنها شأن بقية العبادات التي أرشد الشارع إلى أهدافها وغاياتها النبيلة، بالإضافة إلى ما تتضمنه من جوانب روحية ومعنوية عالية، لتتحول إلى عبادة حية يعيشها الإنسان.

وهذا ما نحاول تسليط الضوء عليه من خلال هذه الدراسة المتواضعة، وبالله التوفيق، وعليه التكلان.

السبت

٢٥ / ١ / ١٤٢٤هـ. ق

قم المقدسة

الفصل الأول

- التسليم أولاً.
- التوحيد يتجلى في الحج.
- التقوى غاية الحج.
- ويذكروا اسم الله.
- الحشر الأصغر.

التسليم أولاً

يعد التسليم أحد أبرز العلائم على إيمان الإنسان بالله عز وجل، بل لا يكون المؤمن مؤمناً إذا لم يكن مسلماً. قال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[1].

وللتسليم مصاديق كثيرة، والذي يهمنا في المقام هو التسليم لله عزّ وجلّ في كل ما يأمر به وينهى عنه في مجال العبادات والفرائض الدينية، بحيث يكون امتثال الإنسان لهذه الأوامر والابتعاد عن تلك النواهي نابعاً من إيمانه بأن هذا حق لله تعالى نابع من مولويته وربوبيته على جميع العباد، حيث يجب عليهم بمقتضى العبودية أن يسلّموا لكل ما يأمر وينهى عنه.

إضافة إلى ذلك لا بد أن يعتقد الإنسان أن كل ما كلف به وفرض عليه خارج عن نطاق العبث، بل لحكمة وغاية تصب في مصلحته وفائدته على الصعيدين الدنيوي والأُخروي.

وهذا بغض النظر عن كون هذا الأمر أو النهي ظاهر المصلحة أم لا، ووفق ما يهوى الإنسان ويشتهي أم لا.

---

(١) النساء : ٦٥.

(إذا اقتضت حكمة الله سبحانه نجاة الخلق بكون أعمالهم على خلاف أهوية تباعهم، وأن تكون أزمتها بيد الشارع، فيترددون في أعمالهم على سنن الانقياد ومقتضى الاستعباد، كان ما لا يهتدي إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات، وصرفها عن مقتضى الطبع إلى مقتضى الاسترقاق، ولهذا كان مصدر تعجب النفوس من الأفعال العجيبة هو الذهول عن أسرار التعبدات)[١].

ويأتي التأكيد من قبل الشارع ـ على ـ في التكاليف التي يكتنفها الإبهام والغموض والتي تبدو للوهلة الأولى تتعارض مع ما يتعقله ويستوعبه، فيبدأ الإنسان بالبحث عما يؤدي لتبرير هذا التكليف. و إذا لم يصل إلى نتيجة يقوم بالتشكيك وتسخيف ذلك التكليف الإلهي بحجة أنه لا يتوافق مع العقل!

و يمكن القول: أنّ هذا هو الطابع العام للعبادة، لذا (نواجه في كثير من الحالات نقاطاً غيبية في العبادة، أي: جملة من التفاصيل لا يمكن للإنسان الممارس للعبادة أن يعي سرها، ويفسرها تفسيراً مادياً محسوساً، فلماذا صارت صلاة المغرب

---

(١) مجلة ميقات الحج : العدد ،٥ ص٢٦ (بحث بعنوان أسرار الحج وأعماله الباطنية، نقلاً عن شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني).

ثلاث ركعات وصلاة الظهر أكثر من ذلك؟، ولماذا اشتملت كل ركعة على ركوع واحد لا ركوعين، وعلى سجدتين لا سجدة واحدة؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي تطرح من هذا القبيل.

ونسمي هذا الجانب الذي لا يمكن تفسيره من العبادة بالجانب الغيبي منها، ونحن نجد هذا الجانب بشكل وآخر في أكثر العبادات التي جاءت بها الشريعة، ومن هنا يمكن اعتبار الغيبية ـ بالمعنى الذي ذكرناه ـ ظاهرة عامة في العبادات ومن ملامحها المشتركة.

وهذه الغيبية مرتبطة بالعبادات ودورها المفروض ارتباطاً عضوياً، ذلك لأن دور العبادات ـ كما عرفناه سابقاً ـ هو تأكيد الإيمان والارتباط بالمطلق وترسيخه عملياً.

وكلما كان عنصر الانقياد والاستسلام في العبادة أكبر كان أثرها في تعميق الربط بين العابد وربه أقوى، فإذا كان العمل الذي يمارسه العابد مفهوماً بكل أبعاده، واضح الحكمة والمصلحة في كل تفاصيله تضاءل عنصر الاستسلام والانقياد وطغت عليه دوافع المصلحة والمنفعة، ولم يعد عبادة لله بقدر ما هو عمل نافع يمارسه العابد لكي ينتفع به ويستفيد من آثاره.

فالانقياد والاستسلام يتطلب افتراض جانب غيبي، ومحاولة التساؤل عن هذا الجانب الغيبي من العبادة والمطالبة بتفسيره وتحديد المصلحة فيه يعني تفريغ العبادة من حقيقتها، كتعبير عملي عن الاستسلام والانقياد، وقياسها بمقاييس المصلحة والمنفعة كأي عمل آخر)"[١].

من هنا تأتي نصوص الشارع لتؤكد على أنّ كل تكليف ثبت بالدليل القاطع وجوبه، أو حرمته لا يجوز أنْ يكون مسرحاً للعقول باعتبار(أنّ دين الله لا يصاب بالعقول)"[٢]. لا يمكن أنّ نعرف أنّ هذه المصلحة هي العلة للحكم، أو أنّ تلك الحكمة على نحو الجزم للحكم.

وعليه لا يسع الإنسان إلاّ التسليم وإن لم يتعقل أو يستوعب ذلك التكليف، وإلاّ لا يعد مؤمناً من وجهة نظر الشارع، إذ لا يمكن التبعيض في الإيمان بأنْ يقبل الإنسان شيئاً ويرفض آخر، بل الإيمان وحدة متكاملة لا تبعيض فيها، قائمة على أساس التسليم لله عزّ وجلّ في كل ما يأمر وينهى عنه. مع أنّ الايمان بالله تعالى لم يكن ليأمرنا بشيء أو ينهانا عن شيء إلاّ لمصلحة اقتضت ذلك، وإلاّ فالحكيم لا يمكن أن يأمر وينهى عبثاً.

---

(١) الفتاوى الواضحة للشهيد السيد محمد باقر الصدر (قدس سره) : ٧٠٧.
(٢) مستدرك الوسائل: ١٧:٢٦٢.

والنتيجة المتوخاة من ذلك أنّ (التسليم والرضا لله عزّ وجل بما يريد مرتبة مهمة من الكمال العقلي والنفسي، بشكل يشمل ذلك حتى ما يعلم العبد أنّ الامتثال ليس لأجل المصلحة في المتعلق، ولا يعود بالنفع عليه من هذه الناحية، ولكن يكفي نفعاً وجود التسليم والرضا، بطبيعة الحال)[1].

الحج والتسليم

هذا من ناحية عامة في كل التكاليف والفرائض الدينية، وهنا نود أن نشير إلى فريضة الحج باعتبارها من أكثر الفرائض غموضاً وإبهاماً، حيث لا يسع الإنسان إلاّ التسليم لله عزّ وجلّ في امتثالها، والإيمان بأنّ الله تعالى ما فرضها إلاّ لمصلحة اقتضت أنْ يكلفه بها، وإنْ لم يدرك العقل الحكمة منها.

وللشيخ محمّد مهدي النراقي في كتابه المعروف (جامع السعادات) كلام يشير فيه إلى الغموض الذي يكتنف مناسك وأعمال الحج، قال: (مع كون أعماله أموراً لا تأنس بها النفوس، ولا تهتدي إلى معانيها العقول، كرمي الجمار بالأحجار، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار، إذ بمثل هذه الأعمال

(١) ما وراء الفقه : ٢:٢٥٤.

يظهر كمال الرق والعبودية، فإنّ سائر العبادات أعمال وأفعال يظهر وجهها للعقل، فللنفس إليها ميل، وللطبع بها أنس. وأمّا بعض أعمال الحج ـ كرمي الجمار وترددات السعي ـ فلاحظَ للنفس ولا أنس للطبع فيها، ولا اهتداء للعقل إلى معانيها، فلا يكون الإقدام عليها إلاّ لمجرد الأمر وقصد الامتثال له من حيث إنّه أمر واجب الاتباع، ففيها عزل العقل عن تصرفه، وصرف النفس والطبع عن محل أُنسه، فإن كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلاً ما، فيكون ذلك الميل معيناً للامتثال، فلا يظهر به كمال الرق والانقياد؛ ولذلك قال النبي ﷺ في الحج على الخصوص : ((**لبيك بحجة حقاً وتعبداً ورقاً**))، ولم يقل ذلك في غيره من العبادات. فمثل هذه العبادات ـ أي ما لم يهتد العقل إلى معناه ووجه ـ أبلغ أنواع العبادات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضي الطبع والبغي إلى الاسترقاق، فتعجب بعض الناس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الجهل بأسرار التعبدات، وهذا هو السر في وضع الحج)[1].

---

(١) جامع السعادات : ٣ ص٣٠٧.

وهذا ما يجعل القرآن يرفع صوته عالياً بقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾[1].

فهذه العبادة ـ وقبل كل شيء ـ من أجل أن يمتحن الله تعالى إيمان العبد وتسليمه له، وهذا ما جعل مثل ابن أبي العوجاء يستنكر ويستخف من فصول هذه العبادة.

ففي الحديث أنّ ابن أبي العوجاء وابن طالوت وابن الأعمى وابن المقفع في نفر من الزنادقة كانوا مجتمعين في الموسم بالمسجد الحرام، وأبو عبد الله جعفر بن محمد (عليهما السلام) فيه إذ ذاك يفتي الناس، ويفسر لهم القرآن، ويجيب عن المسائل بالحجج والبينات، فقال القوم لابن أبي العوجاء : هل لك في تغليط هذا الجالس وسؤاله عما يفضحه عند هؤلاء المحيطين به؟ فقد ترى فتنة الناس به، فهو يفسر لهم القرآن ويجيب عن المسائل به، وهو علامة زمانه.

---

(١) الحج : ٢٧.

فقال لهم ابن أبي العوجاء: نعم، ثم تقدم ففرق الناس، وقال : أبا عبد الله، إنّ المجالس أمانات، ولا بد لكل من كان به سؤال أن يسأل، فتأذن لي في السؤال؟

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): **سل ما شئت.**

فقال ابن أبي العوجاء: إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر؟ من فكر في هذا وقدر علم أنّه فعل غير حكيم ولا ذي نظر، فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه، وأبوك أُسه ونظامه.

فقال له الصادق (عليه السلام): **إنّ مَنْ أضله الله وأعمى قلبه استوخم الحق ولم يستعذبه، وصار الشيطان وليه وربه، ويورده موارد الهلكة ولا يصدره، وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارته، وجعله قبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال، ومجمع العظمة والجلال، خلقه الله تعالى قبل دحو الأرض بألفي عام، فأحق من أُطيع فيما أمر، وانتهى عما زجر الله المنشئ للأرواح والصور.**

فقال له ابن أبي العوجاء: ذكرت أبا عبد الله فأحلت على غائب.

فقال الصادق (عليه السلام): **كيف يكون يا ويلك غائباً مَنْ هو مع خلقه شاهد، وإليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم، ويعلم أسرارهم، لا يخلو منه مكان، ولا يشغل به مكان، ولا يكون من مكان أقرب من مكان، يشهد له بذلك آثاره، ويدل عليه أفعاله، والذي بعثه بالآيات بالحكمة والبراهين الواضحة محمد (صلى الله عليه وآله) جاءنا بهذه العبادة فإن شككت في شيء من أمره فسل عنه أوضحه لك)).** قال : فأبلس ابن أبي العوجاء ولم يدر ما يقول، وانصرف من بين يديه، فقال لأصحابه : سألتكم أن تلتمسوا لي جمرة فألقيتموني على جمرة. فقالوا له : اسكت فوالله لقد فضحتنا بحيرتك وانقطاعك، وما رأينا أحقر منك اليوم في مجلسه. فقال: ألي تقولون هذا؟ إنّه ابن من حلق رؤوس من ترون ـ وأومأ بيده إلى أهل الموسم ـ[1]

وفي كلام بليغ لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) يشير فيه إلى أهمية جانب التسليم في هذه العبادة على

(١) بحار الأنوار ١٠ : ٢٠٩.

وجه الخصوص مع ما فيها من الغموض والإبهام، قال: ((ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الاتباع لرسله والتصديق بكتبه والخشوع لوجهه، والاستكانة لأمره والاستسلام لطاعته أموراً له خاصة لا تشوبها من غيرها شائبة. وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل، ألا ترون أنّ الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً. ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقل نتائق الأرض مدراً. وأضيق بطون الأودية قطراً. بين جبال خشنة، ورمال دمثة، وعيون وشلة، وقرى منقطعة. لا يزكو بها خف، ولا حافر ولا ظلف. ثم أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم. تهوي إليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة ومهاوي فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتى يهزوا مناكبهم ذللاً يهللون لله حوله. ويرملون على أقدامهم شعثاً غبراً له. قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم، وشوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاء عظيماً وامتحاناً شديداً واختباراً مبيناً، وتمحيصاً بليغاً جعله الله سبباً لرحمته، ووصلة إلى جنته. ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وأنهار،

وسهل وقرار، جم الأشجار، داني الثمار، ملتف البنا، متصل القرى، بين برة سمراء، وروضة خضراء، وأرياف محدقة، وعراص مغدقة، ورياض ناضرة، وطرق عامرة، لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء. ولو كان الأساس المحمول عليها، والأحجار المرفوع بها بين زمردة خضراء، وياقوتة حمراء، ونور وضياء لخفف ذلك مسارعة الشك في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفى معتلج الريب من الناس، ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم. وليجعل ذلك أبواباً فتحاً إلى فضله، وأسباباً ذللاً لعفوه فالله الله في عاجل البغي، وآجل وخامة الظلم، وسوء عاقبة الكبر فإنها مصيدة إبليس العظمى، ومكيدته الكبرى التي تساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة. فما تكدي أبداً، ولا تشوي))[١].

وتجدر الإشارة إلى أنّه لا تعارض بين التسليم وبين بعض الحكم المشار إليها في بعض النصوص، أو ما يصل إليه العقل؛ إذ من مسلمات الشريعة عدم خلوها من المصالح في أوامرها، والمفاسد في نواهيها.

---

(١) نهج البلاغة ٢ : ١٤٦.

هذا على نحو الإجمال، والذي يجب على الإنسان المؤمن أن يؤمن به، وإلاّ جوز على الحكيم تقدست أسماؤه العبث، إنما الكلام في أن يتكلف الإنسان معرفة علل الأحكام أو حكمها على نحو الجزم. لذلك فلعلل الأحكام لا يمكن الوصول إليها إلاّ عن طريق الشارع المقدس.

أمّا بالنسبة إلى الحِكَم فقد يصل العقل إلى بعضها، ولكن يبقى أن لا يجزم بها، لقصور العقل من بلوغ تلك المصالح، ولا بأس أنْ يقول: إنّ هذه العلة من حِكَم هذا الحُكم وما إليه.

وعلى كل حال، فإنّ في بيان بعض الحِكَم تسكين للنفوس وتطمأنة لها، دفعاً للإنسان على المثابرة والاستمرار على تلك العبادات، لأنّه جُبِلَ على جلب المنفعة لنفسه ودرء المفسدة عنها.

وهذا ما أهتم به الأئمة (صلوات الله عليهم)، حيث بيّنوا بعض حكم الأحكام ليحفزوا الناس ويحببوا العبادات لهم، وهذا ما جعل الشيخ الصدوق (رحمة الله عليه) أن يجمع روايات الأئمة في كتاب مستقل سماه (علل الشرائع). ومما نقله من الروايات التي تبين بعض حِكَم الحج، ما رواه عن الإمام علي بن

موسى الرضا (عليهما السلام) في الإشارة إلى بعض حِكَم هذه العبادة العظيمة، باعتبارها وقعت مورد تساؤل من الكثيرين فيقول: إنّ أبا الحسن علي بن موسى الرضا كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله: أن علة الحج الوفادة إلى الله تعالى، وطلب الزيادة والخروج من كل ما قترف وليكونَ تائباً مما مضى، مستأنفاً لما يستقبل، وما فيه من استخراج الأموال وتعب الأبدان وحظرها عن الشهوات واللذات، والتقرب في العبادة إلى الله عزّ وجلّ والخضوع والاستكانة والذل شاخصاً في الحر والبرد، والأمن والخوف دائباً في ذلك دايماً، وما في ذلك لجميع الخلق من المنافع والرغبة والرهبة إلى الله سبحانه وتعالى، ومنه ترك قساوة القلب وخساسة الأنفس ونسيان الذكر وانقطاع الرجا والأمل، وتجديد الحقوق وخطر الأنفس عن الفساد، ومنفعة من في المشرق والمغرب، ومن في البر والبحر ممن يحج وممن لا يحج، من تاجر وجالب وبايع ومشترٍ وكاسب ومسكين، وقضاء حوائج أهل الأطراف والمواضع، الممكن لهم الاجتماع فيها كذلك ليشهدوا منافع لهم[1].

---

(١) علل الشرائع ٢ : ٤٠٤.

وفي جانب آخر لا يطلب من الإنسان ـ في خصوص هذه العبادة ـ مجرد التسليم فقط، بل إضافة إلى ذلك يطلب منه التعظيم لتلك الأعمال والمناسك، باعتبارها من شعائر الله تعالى التي تعظيمها واحترامها دلالة على رسوخ التقوى في القلب. يقول تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[١].

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

وأخيراً يؤكد تعالى على أنّ تعظيم كل تلك الشعائر والمناسك من تقوى القلب والإيمان، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[٣].

---

(١) البقرة : ١٥٨.
(٢) الحج : ٣٦.
(٣) الحج : ٣٦.

التوحيد يتجلى في الحج

يعتبر مبدأ التوحيد ـ بما له من مفهوم واسع وعميق ـ الهدف الأول لجميع العبادات بما فيها فريضة الحج، مع فارق أنّه فيه بشكل واضح وصريح.

من هنا فإنا نجد أنّ فصول هذه العبادة العظيمة تحاول ترسيخ هذا المبدأ العظيم، الذي هو أساس الدين وجوهره، بحيث يتحول إلى توحيد عملي يجسده الإنسان في كل منسك من مناسكه.

(إنّ العبادة ـ أية عبادة كانت ـ يعتبر فيها الخلوص، قال تعالى: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[1]، إلاّ أنّ تجلي ذلك الخلوص في بعضها أظهر، وطرد الشرك في بعضها أقوى وأجلى، ومن ذلك الحج، حيث إنّ التوحيد قد تمثل به، وصار هو بأسره من البدو إلى الختم مثالاً للتوحيد وطرداً للشرك...)[2].

---

(١) الزمر : ٣.

(٢) أسرار الحج : ٢٩.

التوحيد يتجلى في الاحرام:

يبدأ المكلف فصول هذه العبادة بالتجرد عن كل مظاهر الزينة والزهو والفخر والعز، مفتتحاً رحلته وسفره إلى الله عزّ وجلّ، بنيته وقوله: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك...) (وهذه التلبية هي تجسيد واضح وتأكيد للتوحيد الخالص والصحيح.

ففي الرواية عن الإمام الرضا (عليه السلام): ((**....فلم أمروا بالإحرام؟ قيل: لأن يخشعوا قبل دخولهم حرم الله وأمنه، ولئلا يلهوا ويشتغلوا بشيء من أمور الدنيا وزينتها ولذاتها، ويكونوا صابرين فيما هم فيه، قاصدين نحوه، مقبلين عليه بكليتهم مع ما فيه من التعظيم لله عز وجل ولبيته، والتذلل لانفسهم عند قصدهم إلى الله تعالى ووفادتهم إليه، راجين ثوابه راهبين من عقابه، ماضين نحوه مقبلين إليه بالذل والاستكانة والخضوع**))[1].

وعن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله (عليه السلام) حيث يشير الإمام (عليه السلام) إلى التلبية الواجبة منها والمستحبة،

(١) علل الشرائع : ١ ص٢٧٤.

التي تتضمن في معانيها روح التوحيد والإقرار لله سبحانه وتعالى بالوحدانية والربوبية والإلوهية معاً، مع بعض صفات الكمال والجمال له تقدست أسماؤه.

قال (عليه السلام) : ((**التلبية أنْ تقول : لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك، لبيك ذا المعارج، لبيك لبيك داعياً إلى دار السلام، لبيك لبيك غفار الذنوب، لبيك لبيك أهل التلبية، لبيك لبيك ذا الجلال والإكرام، لبيك لبيك تبدئ والمعاد إليك، لبيك لبيك تستغنى ويفتقر إليك، لبيك لبيك مرهوباً ومرغوباً إليك، لبيك لبيك اله الحق، لبيك لبيك ذا النعماء والفضل الحسن الجميل، لبيك لبيك كشاف الكرب العظام، لبيك لبيك عبدك وابن عبديك، لبيك لبيك يا كريم لبيك تقول ذلك في دبر كل صلاة مكتوبة ونافلة، وحين ينهض بك بعيرك، وإذا علوت شرفاً، أو هبطت وادياً أو لقيت راكباً، أو استيقظت من منامك وبالأسحار، وأكثر ما استطعت واجهر بها، وإنْ تركت بعض التلبية فلا يضرك غير أنْ تمامها أفضل، واعلم أنه لا بد من التلبيات الأربع التي كنَّ في أول الكلام، وهي الفريضة وهي**

التوحيد، وبها لبى المرسلون. وأكثر من ذي المعارج فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يكثر منها، وأول من لبى إبراهيم عليه السلام، قال : إنّ الله عزّ وجلّ يدعوكم إلى أن تحجوا بيته فأجابوه بالتلبية، ولم يبق أحد أخذ ميثاقه بالموافاة في ظهر رجل ولا بطن امرأة إلاّ أجاب بالتلبية[1].

التوحيد يتجلى في الطواف:

ثم يأتي الحاج ليدخل حرم الله تعالى بخشوع وخضوع وتذلل، ويطوف حول بيته (الكعبة) سبعة أشواط، متشبهاً بالملائكة الذين يطوفون حول العرش أو البيت المعمور، مسبحين ومهللين له وحده لا شريك له.

حيث يستحب له أن يكرر في طوافه عشر مرات : (أشهد أنْ لا إله إلا الله أحداً فرداً صمداً، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً)[2].

---

(١) وسائل الشيعة : ٩ص٥٣.

(٢) الحج في السنة : ١٧٨. روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنّه قال : ((من قال في طوافه عشر مرات (الدعاء) كتب الله له خمساً وأربعين حسنة)).

وكل هذه الأعمال والمناسك التي تؤدى عند البيت وحوله إنما تشير إلى أنّ الكعبة تمثل (الوجود المادي الرمزي للتوحيد الخالص الذي جاء به الإسلام، وجاء به إبراهيم الذي وضع قواعد البيت. و﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾[1] وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

وبالتالي تمثل الكعبة، بنحو الرمز: الوجود الإلهي على الأرض. ومن هنا انبثقت تسميته ببيت الله، وأمر الله بالتوجه إليه في الصلاة كقبلة للمسلمين، وكان قصد الكعبة المشرفة، من البلد البعيد والقريب قصداً مادياً ومعنوياً للتوحيد، ولذين الله العظيم.

ويكون إظهار الإخلاص لها إظهاراً للإخلاص والتوحيد، لله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولو يكن كفواً أحد.

---

(١) الحج : ٧٨.

(٢) الأنعام : ٧٩.

ويكون الدوران حول الكعبة بالطواف، وجعلها مركز الإحساس المادي رمزاً حياً من الدوران حول التوحيد، وحول الحق الصريح، وجعلها مركز الإحساس المعنوي ومركز النشاط الإنساني النفس والإجتماعي)[١].

وفي أثناء طوافه يأتي الحاج ليصافح يمين الله تعالى في أرضه ليؤدي الأمانة، ويفي بالعهد الذي حُمّله من قبل الله عزّ وجلّ، عند (الحجر الأسود).

وفي الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام)، قال: **((طوفوا بالبيت واستلموا الركن، فإنّه يمين الله في أرضه، يصافح بها خلقه مصافحة العبد أو الدخيل، ويشهد من استلمه بالموافاة))**[٢].

ثم يأتي ليقبل الحجر الأسود ويجدد البيعة لله تبارك وتعالى ليؤدي الأمانة، عن محمّد بن سنان، أنّ أبا الحسن الرضا (عليه السلام) كتب إليه من جواب مسائله استلام الحجر: **((إن الله تبارك وتعالى لما أخذ مواثيق بني آدم التقمه الحجر، فمن ثمّ**

---

(١) ماوراء الفقه : ٢ ص٢٦٥.

(٢) الحج في السنة : ١٨٧.

كُلّف الناس بمعاهدة ذلك الميثاق، ومن ثمّ يقال عند الحجر: أمانتي أديتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة))[١]

ومن آداب استلام الحجر الأسود أنْ يقول حين استلامه: (آمنت بالله وكفرت بالجبت والطاغوت واللات والعزّى، وعبادة الشيطان وعبادة الأوثان، وعبادة كل ندّ يدعى من دون الله)[٢] وهذا لعمري هو روح التوحيد وجوهره.

وفي استلام الحجر تجدر الإشارة إلى أنّه (يحتوي على عدة معان:

المعنى الأول : إنّه ما دامت الكعبة المشرفة رمزاً للتوحيد المعنوي، فأحرى استلام الحجر أنْ يكون هو الرمز المادي للاتصال المعنوي. وفكرة التوحيد وملامستها في عالم الفكر والمعنى.

المعنى الثاني: إنّ الحجر ـ كما ورد ـ يمين الله في الأرض، فيكون استلامه مصافحة لرمز التوحيد ولله عزّ وجلّ أيضاً في

---

(١) الحج في السنة : ١٨٦. في الرواية عن النبي (صلى الله عليه وآله) : ((يبعث الله الحجر الأسود والركن اليماني يوم القيامة ولهما عينان وشفتان يشهدان لمن استلمهما بالموافاة)).

(٢) الوسائل ٩: ٤٠٠.

عالم المعنى، لما تحتوي المصافحة من بذل للولاء والحب والإخلاص بين الطرفين.

المعنى الثالث: إنّ الحجر بصفته يمين الله في الأرض، يكون استلامه مبايعة لله تعالى.

فلئن كانت البيعة للخلفاء والعظماء مشبوعة اجتماعياً وإسلامياً مرة واحدة، للدلالة على الاقتداء بالقائد، وبيع الولاء له والطاعة المطلقة. فهذا هو ما ينبغي أن يحدث بين الله وبين عباده.

إلاّ أنّ هذه المبايعة لن تكون شكلية ولن تقتصر على المرة، بل ينبغي الاستلام في كل شوط من أشواط الطواف، وينبغي البقاء على المبايعة والولاء والإخلاص مدى الحياة.

ولئن كانت بيعة الشجرة بيعة لله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1] فإنّها بوجودها العام غير خاص بولاية النفر، وإنّما هي فرصة مفتوحة لكل مسلم بأن يجدد بيعته وولاءه لربه في كل شوط، وفي كل طواف وفي كل عام)[2].

---

(١) الفتح : ١٠.

(٢) ما وراء الفقه ٢:٢٦٧.

لذلك فإنّ هذه النصوص من الشارع تؤكد على أنّ هذه الشعائر ليست مجرد طقوس تعبدية، بل وراء كل منسك أبعاد معنوية وغيبية تصب في مصلحة الإنسان و فائدته، من هنا فإنّها ترفض كل الرفض أنْ يتعامل مع هذه المناسك على نحو الظاهر دون أن يلتفت إلى تلك الأبعاد، وهذا ما جعل أمير المؤمنين ينكر على عمر بن الخطاب تعامله مع الحجر الأسود بطريقة قشرية.

ففي الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: ((مرّ **عمر بن الخطاب على الحجر الأسود فقال : والله يا حجر إنا لنعلم أنّك حجر لا تضر ولا تنفع إلاّ أنا رأينا رسول الله ﷺ يحبك فنحن نحبك.**

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : كيف يابن الخطاب ! فوالله ليبعثنه الله يوم القيامة وله لسان وشفتان، فيشهد لمن وافاه، وهو يمين الله عزّ وجلّ في أرضه يبايع بها خلقه، فقال عمر : لا أبقانا الله في بلد لا يكون فيه علي بن أبى طالب)) [1]

(١) وسائل الشيعة ج١٣ : ٣٢٠.

وفي حديث آخر عن عبد الله بن سنان قال : بينا نحن في الطواف إذ مر رجل من آل عمر فأخذ بيده رجل فاستلم الحجر، فانتهره وأغلظ له وقال له : بطل حجك، لأنّ الذي استلمته حجر لا يضر ولا ينفع، فقلت لأبي عبد الله (عليه السلام): أما سمعت قول العمري، فقال أبو عبد الله (عليه السلام): **((كذب ثم كذب ثم كذب، إنّ للحجر لسانا ذلقاً يوم القيامة يشهد لمن وافاه بالموافاة،** ـ ثم ذكر حديث خلق آدم وأخذ الميثاق على ذريته، وإنّ الحجر التقم الميثاق من الخلق كلهم، إلى أنْ قال: **فمن أجل ذلك أمرتم أنْ تقولوا إذا استلمتم الحجر: أمانتي أديتها، وميثاقي تعاهدته تشهد لي بالموافاة يوم القيامة))** [1]

التوحيد يتجلى في السعي:

ثم يأتي الحاج ليسعى بين الصفا والمروة، ليجسد التوحيد مرة أخرى، وليرفع صوته بكلمة التوحيد الخالصة: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير). [2]

---

(١) وسائل الشيعة ج١٣ : ٣٢٠.

(٢) الحج في السنة : ٢١٠. عن جميل، قال : قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): هل من دعاء مؤقت أقوله على الصفا والمروة؟ فقال : ((**تقول إذا وقفت على الصفا ـ الدعاء ـ**

التوحيد يتجلى في عرفات:

ثم يتوجه إلى عرفات ليجسد التوحيد بقصده وجه الله، والتوكل ه والاعتماد عليه.

في الحديث عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: **((إذا غدوت إلى عرفة فقل وأنت متوجه إليها: اللّهم إليك صمدت وإياك اعتمدت ووجهك أردت، فأسألك أن تبارك لي في رحلتي، وأن تقضي لي حاجتي، وأن تجعلني اليوم ممن تباهي به من هو أفضل مني ثم تلبّي وأنت غادٍ إلى عرفات))**[١]

وبهذه الطريقة يجب أن تؤدى كل فصول ومناسك هذه الفريضة العظيمة، ليكون ممتثلاً لقول الله عزّ وجلّ: ﴿**وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ**﴾[٢].

والحاصل أنّ الحج توحيد ممثّل، والتوحيد هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لها.

ثلاث مرات: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير)).

(١) الحج في السنة : ٢١٨.

(٢) البقرة : ١٩٦.

فعليه يكون الحج من أهم مظاهر الإسلام ومجلى للأصلين المتقدمين، أي: الكلية والدوام، ولذا تداولته الأمم والأقوام، ولم تطاوله الأعوام والأيام طول الدهر. ومما يرشدك إلى أنّ الحج توحيد ممثّل، هو أن من أركانه الهامة هو الطواف، وهو عبادة خاصة، يتجلى فيه قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[1].

وبيان ذلك، هو: أنّ المعتبر في الصلاة المكتوبة استقبال الكعبة والتوجه إليها دون غيرها من الجهات.

وأمّا في الحج فالمعتبر هو السير حول الكعبة والطواف على محورها في أية جهة كانت من الجهات الأربع و إلى أي جهة منها، فالحاج يرى ـ أينما تولّوا فثمّ وجه الله ـ والمصلي يرى ـ ولو وجوهكم شطر المسجد الحرام ـ وكم بينهما من الميز.

و من الواجبات الهامة في الحج، السعي بين الصفا والمروة، وهو هرولة خاصة من الله وإلى الله، وفرار من إليه، وهجرة منه إليه، ولياذ منه إليه، وعوذ به منه، كما عن مولانا أبي جعفر محمّد بن علي (عليهما السلام) في تطبيق قوله تعالى : ﴿فَفِرُّوا

---

(١) البقرة : ١٥٠.

إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[١]، قال (عليه السلام): **((حجو إلى الله عزّ وجلّ))**[٢].

وهذا هو التوحيد القراح، الذي لا يصحبه شيء عدا من **﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾**[٣]، فتدبّر قول النبي (صلى الله عليه وآله)، حيث قال : بعد حمل جهازه على راحلته: ((**هذه حجة لا رياء فيها ولا سمعة** ثم قال (صلى الله عليه وآله): **من تجهز وفي جهازه علم حرام لم يقبل الله منه.**

وتأمل في قوله (عليه السلام): ((**إنّ الحجر الأسود يمين الله في الأرض))** للميثاق، حتى يتجه كون الحج مثالاً للتوحيد)[٤].

مع بطل التوحيد:

وهنا نستحضر قصة بطل التوحيد النبي إبراهيم (عليه السلام) مع ابنه النبي إسماعيل (عليه السلام)، حينما أمرهما الله عز وجل بإعادة بناء (الكعبة)، بعد أن اندثرت وانمحى أثرها

---

(١) الذاريات : ٥٠.

(٢) وسائل الشيعة:١١:١٠.

(٣) الحديد : ٣.

(٤) أسرار الحج : ٣١.

بسبب الطوفان الذي حدث في زمن النبي نوح (عليه السلام) فهجرت لقرون طويلة.

فقد كان تأسيسها وإعادة بنائها على التوحيد الخالص لله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[١].

(فمهمة إبراهيم (عليه السلام) كانت تطهير البيت وما حوله من أي نجس ظاهر أو باطن، ومن أي صنم أو مظهر للشرك، من أجل أن يوجه عباد الرحمن قلوبهم وأبصارهم إليه تعالى وحده في هذا المكان الطاهر، وليقوموا بأهم العبادات في هذه البقعة المباركة، ألا وهو الطواف والصلاة في محيط إيماني لا يخالطه شك)[٢].

(١) البقرة : ١٢٥.

(٢) تفسير الأمثل ١٠ : ٣٢٠.

ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1].

وهكذا تستمر عملية تأكيد وترسيخ مبدأ التوحيد عند البيت الحرام ومن خلال مناسكه على مرّ الزمان، ليبقى طاهراً من الشرك وكل أمر يعبد من دون الله تعالى.

إعلان البراءة من المشركين:

من هنا فإن القرآن يرفع صوته عالياً ويعلنها للجميع، أنّ الله تعالى بريء من المشركين. قال تعالى : ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2].

---

(١) البقرة : ١٢٧ و ١٢٨.

(٢) التوبة : ٣.

قوله تعالى: ﴿بَرَاءةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[(١)]، حدثني أبي، عن محمد بن الفضل، عن ابن أبي عمير، عن أبي الصباح الكناني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((نزلت هذه الآية بعد ما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة تبوك في سنة تسع من الهجرة. قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما فتح مكة لم يمنع المشركين الحج في تلك السنة، وكان سنة من العرب في الحج أنّه من دخل مكة وطاف البيت في ثيابه لم يحل له إمساكها، وكانوا يتصدقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف، فكان من وافى مكة يستعير ثوباً ويطوف فيه ثم يرده، ومن لم يجده عارية ولا كرى و لم يكن له إلاّ ثوب واحد طاف بالبيت عرياناً. فجاءت امرأة من العرب وسيمة جميلة فطلبت ثوباً عارية أو كرى فلم تجده، فقالوا لها: إنْ طفت في ثيابك احتجت أن تتصدقي بها.

فقالت: كيف أتصدق وليس لي غيرها؟ فطافت بالبيت عريانة وأشرف لها الناس، فوضعت إحدى يديها على قُبُلِها والأُخرى على دبرها، وقالت شعراً:

---

(١) التوبة : ١.

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحلّه

فلما فرغت من الطواف خطبها جماعة فقالت : إنّ لي زوجاً.

وكانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل نزول سورة براءة أنْ لا يقاتل إلاّ من قاتله، ولا يحارب إلاّ من حاربه وأراده، وقد كان أنزل على [في] ذلك ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾[1]، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يقاتل أحداً قد تنحى عنه واعتزله، حتى نزلت عليه سورة براءة، وأمره بقتل المشركين، من اعتزله ومن لم يعتزله إلاّ الذين قد عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة إلى مدة، منهم صفوان بن أُمية، وسهيل بن عمرو.

فقال الله عزّ وجلّ: ﴿بَرَاءةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ، فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾[2]، ثم يُقتلون حيثما وجدوا بعد.

هذه أشهر السياحة : عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول، وعشراً من ربيع الأخر.

(١) النساء : ٩٠.

(٢) التوبة : ١.

فلما نزلت الآيات من سورة براءة دفعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أبي بكر وأمره أن يخرج إلى مكة ويقرأها على الناس بمنى يوم النحر، فلما خرج أبو بكر نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمد، لا يؤدي عنك إلاّ رجل منك. فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمير المؤمنين عليه السلام في طلب أبي بكر، فلحقه بالروحاء وأخذ منه الآيات، فرجع أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله، أنزل الله في شيئا؟ فقال: لا، إنّ الله أمرنى أن لا يؤدي عني إلاّ أنا أو رجل مني) [(١)].

من هنا ينبغي الالتفات إلى هذا البعد المهم في فريضة الحج، كما أنه يجب أنْ تؤدى فريضة الحج على أساس التوحيد الخالص لله تبارك وتعالى، لا أنْ تؤدى باعتبارها طقوساً وشعائر لا روح فيها ولا هدف.

فـ(ليس جزافاً ما ورد في الحديث من اعتبار الحج نوعاً من الجهاد، ـ أي الجهاد ضد الشيطان وإعلان البراءة منه قولاً وعملاً ـ فإنّ أحد أركان العملية الاعتقادية في الإسلام هو: تبري المسلم

---

(١) تفسير الميزان ٩: ١٦١.

من أعداء الإسلام والمسلمين، وقد ورد ذلك في القرآن مكرراً لئلا يتجه صوب الأعداء، ويجب أن لا يعتمد عليهم ويتبرأ منهم.

إنّ الصنم الذي هو وسيلة قطاع طريق التوحيد ومضلي الإنسانية عن جادة السعادة والهداية يتجلّى في كل عصر بشكل يتناسب مع ذلك العصر.

ففي زمان يظهر بصورة قطعة منحوتة من الحجر، وفي زمان بصورة أشخاص طواغيت، وفي زمان بصورة عقيدة ومذهب وفكرة منحرفة مخالفة للفطرة، في قالب حزب أو قومية أو شعوبية أو طبقية أو شيوعية أو اشتراكية وأمثالها، وجميع هذه الصور والأشكال تجرّ الإنسان نحو الانحراف عن الطريق الطبيعي السهل، وعن عبادة الله التي هي طريق الحياة الموفقة والناجحة.

إنّ وظيفة الشريعة الفطرية والدين الإبراهيمي هو أنْ يكافح الصنم بأي شكل كان، وأنْ يكسر الأصنام في كل مكان ...

إنّ الجهاد في هذه الساحة يكون بمواجهة الفطرة وكفاحها الدائب مع (ما هو ضدّ الفطرة)، والحج هو تجربة الذات لكل مسلم، وتنمية الطاقات الروحية والعسكرية من أجل المواجهة العملية مع الشياطين والمؤسسات الشيطانية)[1].

(١) مجلة فقه أهل البيت : العدد ٢١٦، ٢٩، (بحث بعنوان الأبعاد الدولية للحج).

إضافة إلى كل ما سبق ذكره، ينبغي تفعيل وتعميم مبدأ التوحيد من الساحة الشخصية والداخلية الإسلامية إلى ساحات أتم وأشمل على أساس أنّ الإسلام يتخذ (من التوحيد قاعدة لحضارته، ويرى ضرورة نشر هذه القاعدة لتستوعب الكرة الأرضية برمتها حيث ما وجد الإنسان، ويعد ذلك مبدأ تفوق أهميته أهمية مبدأ الحرية الإنسانية، التي يؤمن بها الإسلام أساساً، ولكنه لا يجد مناصاً من التخلي عنها عندما تتعارض مع قضية الإيمان. ويرى ضرورة نشر التوحيد في الأرض، وإزالة الموانع السياسية والاجتماعية التي تحول دون تقدمه، أو تشكل خطراً عليه في الأرض)[(١)]

(١) مجلة ميقات الحج : العدد ٤، ٢١١، (بحث بعنوان الحج والجهاد المفاهيم المتكاملة).

التقوى غاية الحج

ربما يتوهم البعض - من غير المطلعين على حِكَم وغايات الحج - أنّ فصول الحج ومناسكه تؤدى لوجه الله تعالى وامتثالاً لأمره، بعد أنْ فرض من خلال قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[1].

والحق أنّ هذه العبادة ما فرضت وشرعت إلاّ لغرض وهدف تعميق التقوى والإيمان في نفس الانسان، لذا ولأجل دفع هذا الوهم، قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾[2].

---

(١) آل عمران : ٩٧.

(٢) الحج : ٢٧.

وعليه فإن لهذه العبادة منافع وفوائد تخص الإنسان نفسه، وإذا لم تتحقق فلا خير فيها، وهي بذلك لا تخرج من دائرة العبث، شأنها شأن كل عمل يمارس دون أن يكون الدافع له هدفاً وغاية محددة، فضلاً عن أن يكون هذا الهدف سامياً ونبيلاً.

من هنا ولبيان هذه الغاية جاء قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وقد جاء في تفسير الميزان أنّ هذا بمنزلة (دفع الدخل، كأنّ متوهماً بسيط الفهم يتوهم أنّ لله سبحانه نفعاً في هذه الضحايا ولحومها ودمائها، فأُجيب أنّ الله سبحانه لن يناله شيء من لحومها ودمائها لتنزهه عن الجسمية، وعن كل حاجة، وإنما يناله التقوى نيلاً معنوياً، فيقرب المتصفين به منه تعالى. أو يتوهم أنّ الله سبحانه لما كان منزهاً عن الجسمية وعن كل نقص وحاجة، ولا ينتفع بلحم أو دم فما معنى التضحية بهذه الضحايا؟ فأُجيب بتقرير الكلام وأنّ الأمر كذلك، لكن هذه التضحية

---

(١) الحج : ٣٧

يصحبها صفة معنوية لمن يتقرب بها، وهذه الصفة المعنوية من شأنها أنْ تنال الله سبحانه، بمعنى أنْ تصعد إليه تعالى وتقرب صاحبها منه تقريباً لا يبقى معه بينه وبينه حجاب يحجبه عنه)[١].

من هنا فإنّ الحج يعتبر خير محطة يتزود الإنسان منها بالتقوى، كما وصفه الله تعالى في قوله : ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[٢].

وخير زاد ينبغي للإنسان أن يتزود به هو التقوى. والتقوى عبارة عن حالة نفسية لا تنمو بالمال والدروس وبالمحاضرات، بل هي ملكة نفسية ينميها المرء من خلال تجارب عملية تترك في ذاته آثاراً إيجابية عميقة.

(إنّ القرآن الكريم خاطب الناس خطاباً مباشراً فدعاهم إلى التزوّد من التقوى أثناء أدائهم مناسك الحجّ، والمهم في الحاج أن يسعى للحصول على التقوى، مهما كانت درجة هذا الحصول

---

(١) تفسير الميزان : ١٤ : ٣٧٥.

(٢) البقرة : ١٩٧.

والتزوّد والطموح. ومن يحصل على هذه الملكة النورانية، فسوف يتلمس السعادة ويذهب إلى الله عزّ وجلّ بقلب سليم [(١)].

وهل هناك محطة أكثر ثواباً وبركة من الحج الذي كل فصوله مشتملة على ذلك وتحث إليه؟

(ولذلك اعتبر القرآن الكريم تعظيم ورعاية شعائر الله من التقوى، والتقوى هي الوقاية والحذر من الأخطار، وهذه الأخطار هي:

١ـ أخطار العذاب الإلهي.

٢ـ أخطار الشيطان.

ولو ألقينا نظرة على أعمال الحج لرأينا أنّ الحج ليس عبادة جافّة، بل هي ساحة قتال، فلو كان المحراب ـ محل عبادة المسلم ـ موضعاً فردياً للمواجهة مع الشيطان فمن الملاحظ أنّ ساحة المواجهة مع الشياطين تتسع للأمة الإسلامية المحمدية، وكلما كان الشيطان أكبر كلما استلزم دقة أكبر وحذراً وشعوراً مركزاً) [(٢)].

---

(١) الحج ضيافة الله : ٢٨.

(٢) مجلة فقه أهل البيت : العدد٢٩،ص٢٢٠ (بحث بعنوان الأبعاد الدولية للحج).

ويذكروا اسم الله

يعد الذكر أحد أهداف وغايات الحج، التي نص عليها القرآن الكريم من خلال قوله تعالى : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾[1].

هذا بصورة عامة، وبصورة خاصة أمرنا الله تعالى عقب بعض المناسك في الحج أن نذكره. وللتأكيد على أهمية الذكر يطالبنا بذكره ذكراً كثيراً. قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾[2].

وقال تعالى :﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾[3].

---

(١) الحج : ٢٧.

(٢) البقرة : ١٩٨.

(٣) البقرة : ٢٠٠.

من هنا يأتي السؤال عن الحكمة من الذكر، الذي جعل أحد أهداف وغايات الصلاة أيضاً، التي هي (عمود الدين).

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[(١)]

وقبل الإجابة على هذا السؤال لا بد من الإشارة إلى حقيقة الذكر، حيث يتصور البعض أنّه مجرد أذكار وتسبيحات وتهليلات وتكبيرات يرددها الإنسان على لسانه، وبالتالي لا يعدو الذكر كونه لقلقة لسان لا أكثر.

وفي الحقيقة أن هذا المفهوم عن الذكر مفهوم خاطئ وسطحي لا يعكس حقيقته وجوهره. فحقيقة الذكر هي حالة روحية سامية يعيشها الإنسان الذاكر في أعماق نفسه، بحيث يكون الله تبارك وتعالى حاضراً في قلبه إلى أن يصل إلى مستوى لا يرى شيئاً إلاّ، ويرى الله (قبله وبعده وفيه)، كما أشار أمير المؤمنين عليه السلام إليه في كلمته المعروفة ....

فالحج (يحتوي على ذكره سبحانه، إمّا لفظياً أو ذهنياً. بمعنى تذكر عظمته وأهمية طاعته والأهداف المودعة عند إنجاز عبادته وأوامره...

---

(١) طه : ١٤.

وتوضيح ما توخيناه : هو أنّ الإنسان بطبيعة تكوينه حين يعمل عملاً من أجل هدف، فإنّه يكون متذكراً لهدفه في كل عمله عادة، في مقدماته ونتائجة، مهما حاول التغاضي أو التناسي.

فالبنّاء أو العامل يتذكر أنّه يعمل لفلان، والمسافر يتذكر أنّه متجه إلى مقصده ... وهكذا. ومن ذلك أننا نجد أنّه من الصعب على الصائم أن ينسى صومه. وعلى المصلي أن ينسى صلاته، أعني خلال أدائه لهاتين العبادتين.

فإذا كان الهدف من العمل هو الله سبحانه والتقرب إليه بما يحبه ويرضاه ـ كما هو الحال في الحج وغيره ـ كان الله سبحانه نصب العين دائماً وحاضراً بالفرق باستمرار في كل أفعال الحج.

وهذا الشعور المستمر بالله عزّ وجلّ، والذكر الدائم له خلال الحج يعطي درساً واضحاً للحال التي يجب أن يكون عليها المؤمن في سائر أيام حياته وساعاته، متذكراً لله تعالى، آخذاً بنظر الاعتبار ثوابه وعقابه وغضبه ورضاه، حتى يكون شعوره بمسؤولية تجاه ربه ودينه متكاملاً عميقاً وشاملاً)[١].

---

(١) ماوراء الفقه ٢: ٢٥٦.

وهذا ما تشير إليه الآية المباركة في قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾**(١). والذين نعتهم الله تبارك وتعالى بالذكر يعيشون هذه الحالة الروحية الرفيعة، حيث يكون الذكر ملازماً للتفكر، في كل شيء في هذا الكون مع ربطه بالله تعالى، وبحكمته من الخلق والوجود.

وبالتالي فإنّ الذكر حالة نفسية وفكرية تعكس مستوى الوعي وحضور عظمة الله جل وعلا، وقدرته وحكمته من الوجود والخلق، و وضع كل ما في الكون في هذا السياق.

وعليه فإنّ جوهر الذكر هو هذه الحالة الروحية الرقيقة، وترديد التسبيحات والتهليلات والتكبير على اللسان إنّما هو نتيجة وانعكاس لتلك الحالة.

وفي الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله)، قال: « **إنّما فرضت الصلاة، وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك**

---

(١) آل عمران : ١٩١.

لإقامة ذكر الله، فإذا لم يكن في قلبك من مذكور الذي هو المقصود والمبتغى عظمة ورهبة فما قيمة ذكرك))[١]

وهنا يتضح أنّ حكمة الذكر التي أرادها الله تعالى للحج، إنّما لكي يعيش الإنسان تلك الحالة الروحية السامية، ويكون على ذكر من عظمة الله تعالى وآلائه ونعمه، ويعيش في تلك الأيام المعلومة والمحددة في أجواء الآخرة والحشر والقيامة بعيداً عن أجواء الدنيا والمادة، التي أرهقته وجعلته يعيش الاضطراب والاكتئاب، لاهثاً وراء كل زخرف زائل، غافلاً عن هدف وجوده وخلقه، فهو بذلك بمثابة البهيمة التي لا ترجو يوماً أن تقف فيه أمام جبار السموات والأرض فتحاسب وتعاتب وتعاقب، كما أشار إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) في قوله : ((فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همّها علفها أو المرسلة شغلها تقممها، تكترش من أعلافها وتلهو عما يراد بها، أو أترك سدى أأهمل عابثاً))[٢].

---

(١) الحج في السنة : ٥٢.

(٢) البقرة : ٢٠٣.

لذلك يعد الحج (دورة إيمانية جاء لتعميق الارتباط بالسماء بذكر الله سبحانه المتواصل الدائم في هذه الأيام المعدودة: ﴿وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾[1]، فيترك هذا الارتباط بصماته على حياة الحاج اليومية، فيستشعر عظمة الله تعالى في كل أنفاسه وخطواته، ويرقبه في كل أعماله وسكناته.

كما يربي الحاج نفسه في هذه الأيام، ويصوغها على الطاعة والانقياد والصبر عليهما، تأمره الشريعة فيأتمر، وتنهاه فينتهي، لا يشغله شاغل عن ذكر، ولا يلهيه أحد عما فيه رضا الله)[2].

لذا من أهم أهداف الحج وغاياته هو أن يرتقي بالإنسان إلى هذا المقام الرفيع، ويكرس فيه هذه الصفة السامية، فهل نوفق ونجتهد ونسعى لنرتقي بأنفسنا إلى هذا المقام، الذي يكون فيه حجنا حج الذاكرين العارفين، الذين يعيشون الحج بكل أهدافه وأبعاده، لا حج الغافلين اللاهين؟.

---

(١) البقرة : ٢٠٣.

(٢) مجلة ميقات الحج : العدد ١٦ ، ٩١. (بحث بعنوان ليشهدوا منافع لهم).

الحشر الاصغر

لا شك أنّ الله عزّ وجلّ خلقنا ليمتحننا ويختبرنا ويبتلينا في هذه الدنيا، لينظر أنشكر أم نكفر؟، ولنعمل الصالحات أم نجترح السيئات، وأنّه جامع الناس ليوم لا ريب فيه. عندها يحاسب العباد فيجازى المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء بسيئاته.

ويشتمل ذلك اليوم على أهوال عظيمة وعقبات كثيرة، حيث يصور القرآن جانباً من أهواله فيقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1].

ومن أجل ذلك جاء التأكيد والتنبيه والإرشاد من قبل الشارع المقدس، لكي نستعد تمام الاستعداد لتلك الأهوال والمصاعب، بالإيمان والعمل الصالح الذي هو المنقذ والمنجي الوحيد في ذلك اليوم، وحتى لا يتحول ذلك اليوم إلى حسرة وندماً وخيبة لا يمكن بحال من الأحوال استدراكها وجبر ما فرط فيها.

---

(١) الحج: ١ ــ ٢.

لذا يرفع القرآن صوته عالياً من خلال قوله تعالى : ﴿ **أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ** ﴾[1].

وحتى لا يكون حالنا كما مثله أمير المؤمنين وسيد الوصيين: **((آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد))**[2].

ولكن ـ وللأسف الشديد ـ الناس في غفلة من ذلك، غير واعين ومستوعبين لعظيم خطر ذلك اليوم، لاهين ولاعبين، يقول تعالى : ﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ** ﴾[3].

---

(١) الزمر : ٥٦.

(٢) نهج البلاغة : خطب الامام علي (عليه السلام): ج ٤ ص ١٧

(٣) الأنبياء : ١ ـ ٣.

مناسك الحج وأهوال القيامة:

وحتى يستيقظ عندهم هذا الحسن لا بد لهم من منبه يقرب لهم المشهد ويجمل لهم الصورة، وليس ذلك إلاّ الحج من خلال مناسكه إذا ما عاشوه بحالة روحية ومعنوية رفيعة.

فقد (روي أنّ أحوال الحج كأحوال الموت، فكما يكتب الإنسان وصيته عند الموت كذلك عند الحج، وكما يركب على راحلته على الجنازة.

وكل امرئ يوما سيركب كارهاً على النعش أعناق العدى والأقارب

وإذا دخل البادية فكأنما أُدخل قبره، والاغتسال للإحرام كغسل الميت، ولبس ثياب الإحرام كالكفن، وإذا خرج من الميقات فكأنه نشر من قبره، والتلبية إجابة الدعاء، ويرى أشعث أغبر فكأنه خرج من قبره، وكلما سلك عقبة يذكر عقبات يوم القيامة لعله يكفاها)[1]

---

(١) مستدرك الوسائل ١ :١٧٤.

ففصول الحج تحتوي على رموز وإشارات كثيرة، تتشابه مع بعض فصول سفر الأخرة، بدءاً من أول فصل منه، حينما يتجرد الإنسان من ملابسه التي هي مظهر الزينة والفخر في الدنيا، ليرتدي قطعتين من القماش لا زينة فيها ولا زهو، متذكراً القطعتين اللتين آخر ما سوف يملكه ويخرج به من الدنيا، ألا وهما كفنه.

ثم يبدأ قطع المسافات والأودية والقفار ليذكر خروجه من قبره حينما ينفخ في الصور ملبياً دعوة الداعي، الذي سوف يأذن للناس بالخروج والتوجه للقاء الله تعالى، وهو ينادي (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك).

ثم يأتي مع جميع الناس ليحوموا جميعاً حول حما الله، يستغيثون ويتضرعون، حيث لا مفر منه إلاّ إليه هائمين ومذهولين من هول تلك الأهوال العظام.

ثم يتوجهون يسعون بين جبلين ذهاباً وإياباً وهم بذلك يترددون بين الخوف والرجاء، الخوف من عذاب الله الأليم، والرجاء والأمل بكرمه ورحمته التي وسعت كل شيء.

ثم يتوجهون إلى ساحة المحشر الصغرى (صحراء عرفات) ليقفوا بين يدي جبار السماوات والأرض، في ذلك الهجير المحرق، متذكرين ساحة المحشر الكبرى في ذلك الموقف الطويل: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1]، متذكرين شمسه المحرقة التي ستكون على ظهور العباد، وتعرقهم منها الذي سيصل إلى حناجرهم، وعسى أن تكون مصاعب ومشقة موقفهم هذا في الدنيا، تكفيهم وتأمنهم مصاعب ومشاق موقفه ذاك في الآخرة.

ونِعم ما صوّره صاحب الجواهر في قوله: (مضافاً إلى ما فيه - أي الحج - من التذكر بالإحرام والوقوف في المشاعر العظام الأهوال في المحشر وأهوال يوم القيامة، إذ الحج هو الحشر الأصغر، وإحرام الناس وتلبيتهم وحشرهم إلى المواقف ووقوفهم بها ولهين متضرعين راجين إلى الفلاح أو الخيبة والشقاء أشبه شيء بخروج الناس من أجداثهم وتوشحهم بأكفانهم، واستغاثتهم من ذنوبهم، وحشرهم إلى صعيد واحد، إمّا إلى نعيم أو عذاب أليم، فحركات الحاج في طوافهم وسعيهم

(١) المعارج : ٤.

ورجوعهم وعودتهم يشبه أطوار الخائف الوجل المضطرب المدهوش، الطالب ملجأ ومفزعاً نحو أهل المحشر في أهوالهم وأطوارهم، وإلى ما فيه من اختبار العباد وطاعتهم وانقيادهم إلى أوامره ونواهيه)[١].

وهناك تصوير آخر رائع وجميل للشيخ النراقي، في كتابه جامع السعادات يشير فيه إلى أوجه الشبه بين فصول الحج وأهوال الآخرة والقيامة، قال: (إذا خرج عن وطنه، ودخل إلى البادية، متوجها إلى الميقات، وشاهد العقبات، فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى الميقات يوم القيامة، وما بينهما من الأهوال والمطالبات، وليتذكر من هول قطاع الطريق هو منكر ونكير، ومن سباع البوادي وحياتها وعقاربها حيات القبر وأفاعيها وعقاربها وديدانها، ومن انفراده عن أهله وأقاربه وحشة القبر ووحدته وكربته، وليكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزوداً لمخاوف القبر. ولبس ثوبي الإحرام، فليتذكر عند لبسهما لبس الكفن ولفه فيه، وأنه سيلقى الله ملفوفاً في ثياب الكفن لا محالة، فكما لا يلقى بيت الله إلاّ بهيئة وزي يخالف عادته، فكذلك لا يلقى الله بعد الموت إلا في زي يخالف زي

(١) الجواهر ١٧: ٢١٩.

الدنيا، وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب، إذ ليس مخيطاً، كما أنّ الكفن أيضاً ليس مخيطاً.

وإذا أحرم ولبى، فليعلم أنّ الإحرام والتلبية إجابة نداء الله، فليرج أن يكون مقبولاً، وليخش أن يكون مردوداً، فيقال : لا لبيك ولا سعديك ! فليكن بين الخوف والرجاء متردداً، وعن حوله وقوته متبرأً، وعلى فضل الله وكرمه متكلاً؛ فإنّ وقت التلبية هو بداية الأمر، وهو محل الخطر. وقد روي : ((أنّ علي بن الحسين (عليهما السلام) لما أحرم، واستوت به راحلته، أصفر لونه وانتقض، ووقعت عليه الرعدة، ولم يستطع أن يلبي. فقيل له : لم لا تلبي؟ فقال : **أخشى أن يقول ربي : لا لبيك ولا سعديك !** فلما لبى غشي عليه وسقط من راحلته، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه))، فليتذكر الملبي عند رفع الأصوات في الميقات خائفاً راجياً، أنّه إجابة لنداء الله تعالى: إذ قال تعالى : **﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾**[1] ، ويتذكر من هذا النداء نداء الخلق بنفخ الصور، وحشرهم من القبور وازدحامهم في عرصات القيامة لنداء الله، فمنقسمين إلى مقربين ومبعدين، ومقبولين ومرددين في أول الأمر بين الخوف والرجاء،

(١) الحج : ٢٧.

مثل تردد الحاج في الميقات، حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا؟

وأما الوقوف بعرفات، فليتذكر بما يرى من ازدحام الخلق، وارتفاع الأصوات، واختلاف اللغات، واتباع الفرق أئمتهم في التردد على المشاعر، عرصات يوم القيامة وأهوالها، وانتشار الخلائق فيها حيارى، واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة، واقتفاء كل أمة نبيهم، وطمعهم في شفاعته لهم وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول. وإذا تذكر ذلك، فليتضرع إلى الله تعالى ويبتهل إليه، ليقبل حجه ويحشره في زمرة الفائزين المرحومين، وينبغي أن يحقق رجاءه إذ اليوم شرف والموقف عظيم، والنفوس من أقطار الأرض فيه مجتمعة، والقلوب إلى الله سبحانه منقطعة، والهمم على الدعاء والسؤال متظاهرة، وبواطن العباد على التضرع والابتهال متعاونة، وأيديهم إلى حضرة الربوبية مرتفعة، وأبصارهم إلى باب فيضه شاخصة، وأعناقهم إلى عظيم لطفه وبره ممتدة، ولا يمكن أن يخلو الموقف عن الأخيار والصالحين وأرباب القلوب والمتقين، بل الظاهر حضور طبقات الأبدال وأوتاد الأرض فيه، فلا تستبعدن أن تصل الرحمة من ذي الجلال بواسطة القلوب العزيزة والنفوس القادسة الشريفة، إلى كافة الخليقة، ولا تظنن أنّه يخيب آمال الجميع، ويضيع سعيهم

ولا يرحم غربتهم وانقطاعهم عن الأهل والأوطان، فإنّ بحر الرحمة أوسع من أن يظن به في مثل هذه الحالة، ولذا ورد : أنه من أعظم الذنوب أنّ يحضر عرفات ويظن أنّ الله لم يغفر له)[١]

ولابن ميثم البحراني تمثيل رائع ومقاربة جميلة بين سفر الحج وسفر الآخرة، حيث يقول: (وليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة، فإن كل هذه أمثلة قريبة يترقى منها إلى أسرارها. ويستحضر نقلته من مركبه إلى منازل الآخرة، التي لا شك فيها، ولعله أقرب من ركوبه الحاضر، فيحتاط في أمره. وليعلم أنّ هذه أمثلة محسوسة، يترقى منها إلى مراكب النجاة من الشقّة الكبرى، وهي عذاب الله سبحانه.

وأمّا ثوب الإحرام وشراؤه ولبسه، فليتذكر معه الكفن، ودرجه فيه، ولعله أقرب إليه. وليتذكر منها التسربل بأنوار الله التي لا نخلص من عذابه إلاّ بها، فيجهد في تحصيلها بقدر إمكانه.

وأمّا الخروج من البلد، فليستحضر عنده أنّه يفارق الأهل والولد، متوجهاً إلى الله سبحانه في سفر غير أسفار الدنيا.

---

(١) جامع السعادات : ٣،٢١١.

ويستحضر أيضاً غايته من ذلك السفر، وأنّه متوجه إلى ملك الملوك وجبار الجبابرة، في جملة الزائرين الذين نودوا فأجابوا، وشوقوا ما شتاقوا، وقطعوا العلائق، وفارقوا الخلائق، وأقبلوا على بيت الله طلباً لرضا الله وطمعاً في النظر إلى وجه الكريم.

وأمّا الإحرام والتلبية من الميقات، فليستحضر أنّه إجابة نداء الله تعالى، وليكن في قبول إجابته خوف ورجاء، مفوض أمره إلى الله، متوكل على فضله.

وليتذكر عند إجابته نداء الله إجابة ندائه بالنفخ في الصور وحشر الخلق من القبور، وازدحامهم في عرصات القيامة، مجيبين لندائه، منقسمين إلى : مقربين، وممقوتين، ومردودين، ومردّدين في أول الأمر بين الخوف والرجاء، تردّد الحاج في الميقات، حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج أم لا؟.

وأمّا دخول مكة، فليستحضر عنده أنّه قد انتهى إلى حرم الله الآمن، وليرجو عنده أنْ يأمن بدخوله من عقاب الله، وليخشى ان لا يكون من أهل القرب، وليكن رجاؤه أغلب، فإنّ الكريم عميم، وشرف البيت عظيم، وحق الزائر مرعي، وذمام اللائذ المستجير غير مضيع، خصوصاً عند أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

ويستحضر أنّ هذا الحرم مثال للحرم الحقيقي، ليرقى من الشوق إلى دخول هذا الحرم والأمن بدخوله من العقاب إلى الشوق إلى دخول ذلك الحرم والمقام الأمين.

وإذا وقع بصره على البيت فليستحضر عظمته في قلبه، وليترقى بفكره إلى مشاهدة حضرة رب البيت في جوار الملائكة المقربين، وليتشوّق أن يرزقه النظر إلى وجهه الكريم، كما رزقه الوصول إلى بيته العظيم، وليتكثّر من الذكر والشكر على تبليغ الله إياه هذه المرتبة.

وبالجملة، فلا يغفل عن تذكير أحوال الآخرة في كل ما يراه، فإنّ كل أحـــوال الحج ومنازله دليل يترقى منه إلى مشاهدة أحوال الآخـــرة)[1].

---

(١) مجلة ميقات الحج : العدد ٥، ص٢٧ (بحث مستل من كتاب شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني).

الفصل الثاني

الأبعاد المعنوية للحج

- تمهيد
- الأبعاد المعنوية في الميقات.
- الأبعاد المعنوية في الحرم.
- الأبعاد المعنوية في عرفات.
- الأبعاد المعنوية في المشعر الحرام.
- الأبعاد المعنوية في منى.

تمهيد

مع أنّ علل مناسك الحج غير معروفة لنا شأنها شأن بقية فصول العبادات، بحيث يجب التسليم والإذعان لله عزّ وجلّ في أدائها وامتثالها، إلاّ أنّه من جانب آخر لا يعني أن تمارس وتمتثل باعتبارها طقوساً وشعائر جامدة لا روح ولا أبعاد معنوية فيها.

بل على العكس من ذلك فأنّ من كمال الحج وسموه أنْ يجسد الإنسان فيه كل الأصول الإيمانية والمبادئ الأخلاقية والتربوية، التي دعا الإسلام لها وحث عليها، والتي هي بمثابة رسالته للبشرية، لغرض الوصول بها إلى الكمال والرقي.

(إنّ الحج بهذا البعد المعنوي الواسع والجاذبية الروحانية هو بمثابة دورة كاملة من البناء الذاتي والترويض والرهبانية، للتخلص من العوالق وتهذيب النفس من كل صنوف الدنس، وللتزين بمظاهر الأسماء والصفات الإلهية، وحين سئل الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) عن الرهبانية، قال: ((**أبدلنا بها الجهاد والتكبير على كل شرف**))، يعني الحج.

ويتضح لنا ذلك بصورة أكثر تجلياً في قولنا : (لبيك ... تعبداً ورقا) عند التلبية في حكم تكبيرة الإحرام في الصلاة.

ولا شك إذن في كون أي حج يفتقد هذه الروح وذلك العقل، وتعوزه المعنوية والطهارة والخلوص والرقي الروحاني مهما بلغت درجة سطوع ظاهره وتزينه بالمظاهر البراقة، لا يتعدى كونه ضجيجاً وحسب)[(١)]

إذ (إدراك الإنسان ليس مجرد إحساس فحسب، وليس مجرد تفكير عقلي وتجريدي فحسب، بل هو مزاج من عقل وحس، من تجريد وتشخيص. وحينما يراد من العبادة أن تؤدّي دورها على نحو يتفاعل معها الإنسان تفاعلاً كاملاً، وتنسجم مع شخصيته المؤلّفة من عقل وحس ينبغي أن تشتمل العبادة نفسها على جانب حسي وجانب عقلي تجريدي، لكي تتطابق العبادة مع شخصية العابد ويعيش العابد في ممارسته العبادية ارتباطه بالمطلق بكل وجوده)[(٢)].

---

(١) مجلة ميقات الحج : العدد ٧،ص٢٢. (بحث بعنوان فلسفة الحج وأسرار مناسكه).

(٢) الفتاوى الواضحة، للسيد الشهيد محمد باقر الصدر (قدس سره) : ٧٧٤.

هذا وتعد رواية الشبلي عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام) من أهم وأجمع وأبلغ النصوص التي أشارت إلى الجوانب المعنوية والروحية، والتي من كمال الحج أن يشتمل عليها في كل فصوله وشعائره.

فقد نقل المحدث النوري في مستدرك الوسائل، عن العالم الجليل الأواه السيد عبد الله، سبط المحدث الجزائري في شرح النخبة، قال : وجدت في عدة مواضع أوثقها بخط المشايخ الذين عاصرناهم مرسلاً أنّه لما رجع مولانا زين العابدين عليه السلام من الحج استقبله الشبلي، فقال (عليه السلام) له: ((**حججت يا شبلي؟** قال : نعم)).

و هنا شرع الإمام زين العابدين (عليه السلام) ببيان الأبعاد المعنوية التي من كمال العبادة أن يتوجه المكلف ويلتفت إليها، وليرتقي عن ظاهر تلك الشعائر إلى ما هو أسمى، وهو عالم الروح والملكوت، وبذلك يكون قد تجاوز ظاهر هذه العبادة إلى آفاق معنوية رحبة، وأعطاها جوانب تربوية سامية.

وفي مقدمة الرواية يتعرض الإمام (عليه السلام) إلى أعمال الميقات وبعض آدابه، ليعطي كل عمل واجباً كان أو مستحباً بعداً معنوياً وتربوياً سامياً.

الأبعاد المعنوية في الميقات

١ ـ إنّ التجرد من الثياب ولبس الإحرام لا بد أن يقترن مع التجرد من المعاصي ولبس ثياب الطاعة.

٢ـ كما وأنّ التجرد من المخيط، الذي هو أحد الواجبات في الإحرام على الرجال، لا بد أن يقترن بالتجرد عن الرياء والسمعة، الذي هو أخطر الأمراض التي يبتلى بها المؤمن، الذي هو الشرك الخفي أو الشرك الأصغر، وهو من أحد أهم مبطلات العبادة، وذلك بعد أن أمرنا أنْ نعبد الله عزّ وجلّ مخلصين له الدين. قال تعالى: **﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾**[١].

٣ـ وكذا التجرد من المخيط لا بد أن يقترن مع التجرد من مرض آخر، وهو النفاق الذي يعني إظهار خلاف ما يبطن الإنسان، إذ قد يظهر المكلف بمظهر العابد الزاهد ولكن باطنه غير ذلك.

---

(١) البينة: ٥.

٤ـ وكذا التجرد من المخيط لا بد أن يقترن مع التجرد من كل الشبهات والمحرمات، التي قد تفسد حج الإنسان، أو قد تمنع من مقبوله.

لذا لا بد من الالتفات إلى أنّ كل المحرمات التي لا تكون من محظورات الإحرام ومبطلات الحج قد تحول بين الإنسان وقبول حجه.

ولنضرب مثلاً على ذلك: الغيبة ليست من محظورات الإحرام ولكنها من الكبائر التي يستوجب عليها الإنسان دخول النار، فحينما يغتاب مؤمناً في حال الإحرام وفي أثناء الحج قد تحول هذه المعصية بينه وبين قبول حجه، من هنا ورد في الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام)، قال: ((**كان أبي يقول: ما يعبؤ[1] من يؤم هذا البيت إذا لم يكن فيه ثلاث خصال: خلق يخالق به من صحبه، أو حلم يملك به من أغضبه، أو ورع يحجزه عن محارم الله**))[2].

(١) أي، لا يعتد به ولا يبالي.

(٢) الكافي ٤: ٢٨٥.

٥ـ وكذا الغسل الذي هو أحد مستحبات الإحرام المؤكدة لا بد أن يكون غسلاً من المعاصي والذنوب والآثام، ورجوعاً عن كل ما اقترفه العبد في الماضي ليكون توبة يستهل بها هذه العبادة العظيمة، ولتكن بادرة يتوجه بها إلى ربه عزّ وجلّ في هذه الرحلة الروحية.

٦ـ وهكذا إزالة الشعر بالنورة الذي هو من المستحبات قبل الإحرام وغسله، لا بد أن يكون بنورة التوبة، حيث هو كناية عن أنّ التوبة تزيل كل ذنب سابق. وفي الحديث عن الإمام الباقر قال (عليه السلام): أن ((التائب من الذنب كمن لا ذنب له))[١]، ولكن أي توبة هذه؟ بالطبع هي التي تكون خالصة لوجه الله تعالى، مع ندم على ما فات، وعزم على عدم العودة للمعصية مرة أُخرى.

٧ـ وكذا عقد نية الإحرام لا بد أن تكون عقداً وعزماً على عدم اقتراف أي محرم، سواء كان من المحرمات الخمسة الخاصة بالإحرام والعشرين أم أي محرم آخر غيرها.

(١) وسائل الشيعة ١٦ : ٧٤

٨ـ وكذا حينما يعقد نية الحج أو العمرة لا بد أن يكون قد حل وفك كل عقدٍ وغلٍ يمنعه من التحرك والتوجه والتقرب لله عزّ وجلّ.

٩ـ وكذا حينما يدخل الميقات لا بد أن يكون دخوله دخول زائر ووافد على الله تعالى، مستحضراً زيارة النبي موسى حينما ذهب للقاء ربه في الميقات.

١٠ـ وكذا حينما يصلي ركعتي الإحرام لا بد أن يكون قد نوى أنهما أفضل القربات، وأحسن الطاعات وخير كل موضوع، والحسنة الكبرى وعمود، الدين التي إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها.

١١ـ وكذا حينما يلبي لا بد أن تكون إجابة لله عزّ وجلّ وطاعة له لكل ما أمر به ، وابتعاداً عن كل ما نهى عنه.

أمّا إذا لم ينو الإنسان ولم يستحضر هذه الأبعاد المعنوية في أعمال الميقات وآدابه، فكأنه لم يؤد شيئاً منها، إذ لا تعدو كونها طقوساً جامدة لا روح فيها.

وعليه فلا يكون هذا من الإنسان إجابة إلى ربه في خصوص الحج (بل عليه أن يطبق طاعة ربه على كل أيام حياته، ويلبيه في

كل تصرفاته، ليكون هو الفرد الكامل الذي يحضى بالعطاء الجليل، ويكوّن اللبنة الصالحة في المجتمع الفاضل الرشيد. وهذه هي الرمزية التي تعطيها التلبية للسير والسلوك في كل الحياة)[١].

وبالطبع فالمقصود من قوله (عليه السلام): ((**لم تأت بكذا**)) هو الفضيلة والكمال، وإن عدّ المكلف ممتثلاً إذا ما أدى هذه الأعمال بإخلاص وامتثال لأمر الله تعالى.

قال الإمام زين العابدين (عليه السلام) للشبلي: ((**... أنزلت الميقات وتجردت عن مخيط الثياب واغتسلت؟**. قال: نعم، قال: **فحين نزلت الميقات نويت أنك خلعت ثوب المعصية، ولبست ثوب الطاعة؟**.

قال: لا.

قال: **فحين تجردت عن مخيط ثيابك، نويت أنّك تجردت من الرياء والنفاق والدخول في الشبهات؟**.

قال: لا.

قال: **فحين اغتسلت نويت أنّك اغتسلت من الخطايا والذنوب؟**.

(١) ما وراء الفقه: ٢ : ٢٦٥.

قال: لا.

قال: فما نزلت الميقات، ولا تجردت عن مخيط الثياب، ولا اغتسلت.

ثم قال: تنظفت، وأحرمت، وعقدت بالحج؟.

قال: نعم.

قال: فحين تنظفت وأحرمت وعقدت الحج، نويت أنّك تنظفت بنورة التوبة الخالصة لله تعالى؟.

قال: لا.

قال: فحين أحرمت نويت أنّك حرّمت على نفسك كل محرم حرمه الله عزّ وجلّ؟.

قال: لا.

قال : فحين عقدت الحج نويت أنّك قد حللت كل عقد لغير الله؟.

قال: لا.

قال له (عليه السلام): ما تنظفت، ولا أحرمت، ولا عقدت الحج. قال له: أدخلت الميقات وصليت ركعتي الإحرام ولبيت؟. قال: نعم. قال: فحين دخلت الميقات، نويت أنّك بنية الزيارة؟.

قال: لا، قال: **فحين صليت الركعتين، نويت أنّك تقربت إلى الله بخير الأعمال من الصلاة، وأكبر حسنات العباد؟.**

قال: لا.

قال: **فحين لبيت، نويت أنّك نطقت لله سبحانه بكل طاعة، وصمتّ عن كل معصية؟**

قال: لا.

قال له (عليه السلام): **ما دخلت الميقات ولا صليت، ولا لبيت))** [1].

(١) مستدرك الوسائل : ١ : ١٦٦.

الأبعاد المعنوية في الحرم

وينطلق الإمام زين العابدين (عليه السلام) في عالم هذه العبادة العظيمة، وفي فضاء الروح ليتجاوز ظاهرها وشكلها إلى حقيقتها وكنهها.

١ـ فعند دخول الحرم تلك المنطقة التي حرمت من قبل رب العالمين، وحرمت فيها الحرب والاعتداء، بل كل شر يمكن أن يؤذي الآخرين، وجعلت المنطقة الوحيدة في الدنيا الآمنة: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[1].

لا بد أن تكون كذلك أمناً للجميع، ومكاناً ينبعث منه السلام للجميع، لا أن يقتصر على التقديس والاحترام الظاهرين، لأداء عبادة مخصوصة لا غير، ومكاناً لا تحفظ فيه حرمة المكان فحسب، بل تحفظ فيه حرمة الآخرين من خلال حرمة المكان.

وعليه فالأمن (في الحرم أمن شامل ... فالإسلام يخطط بناءً على هذا الفهم لضرورة العلاقة وحدودها في حياة الإنسان، ليجعل

---

(١) آل عمران : ٩٧.

العلاقة فيما بين الناس في الحياة الاجتماعية في جو آمن وسليم، فيأمن الإنسان الآخرين على نفسه في حضوره وغيبته، وفي نفسه، وعرضه، وماله، ويأمن على نفسه من ألسنة الآخرين وأيديهم، ومن مكرهم، وكيدهم، وعدوانهم، فيعيش في جو من الأمان الشامل ...

والحرم عينة صغيرة نموذجية في الحياة الآمنة والمطمئنة التي يطلبها الإسلام ... والإحرام عينة أُخرى نموذجية، والحالة التي يطلبها الإسلام للناس في الحياة الاجتماعية، في علاقات الناس بعضهم ببعض. ويعود الحجاج من الإحرام والحرم إلى واقع حياتهم ليأخذوا معهم النموذج الإلهي في الحياة وللعلاقات الاجتماعية، ويعيشوا حياتهم بها)[1].

٢ـ وكذا لا بد أن نلتفت إلى هذا المكان ـ وهو (مكة) ـ الذي نقصده لأداء هذه العبادة ألا وهي (الحج)، ففيه بيت الله جل وعلا، ولا يعني أنّ الله فيه، بل لا يمكن أن يكون الله في مكان؛ إذ هو منزه عن المكان والزمان لأنهما من لوازم المخلوق لا الخالق، بل هو رمز لمعنى رفيع، وإلاّ فهو مالك كل شيء في هذا الكون وكل شيء له حقيقة.

---

(١) مجلة ميقات الحج : العدد ١،ص٢٩٧. (بحث بعنوان دور الحج في ترسيخ السلام في العلاقات الاجتماعية).

لكن هذا الرمز يشير إلى القرب منه تبارك وتعالى، كما أنّك تقصد أحداً في بيته، الذي يكون مقره، للتوسل إليه والتقرب له.

٣ـ كذلك ينبغي أن يكون الطواف والسعي فراراً إلى الله عزّ وجلّ وامتثالاً لأمره: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[1]،ولوذاً وإلتجاءً بكرمه وعفوه ورحمته.

(وعليه فإنّ حركة الطواف نقلة في حياة الإنسان من الأنا إلى الله تعالى. إنّه تعبير رمزي عن التوحيد في حياة الإنسان المسلم، إلاّ أنّ هذا التوحيد ليس هو التوحيد النظري، الذي يعرفه الناس، وإنما هو توحيد العبودية لله، وتوحيد الحب والولاء والاهتمام، كما ترسمه الآية المباركة من سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[2].

إنّ الطواف يرمز إلى الحركة الإنسانية الدائمة والمستمرة حول هذا المحور الإلهي في التاريخ، وإننا لننظر من بعيد إلى حركة التاريخ، لنرى أنّ حركة التاريخ تجسد (التوحيد) في حياة

---

(١) الذاريات : ٥٠.

(٢) الأنعام : ١٦٢ ــ ١٦٣.

الإنسان، وإنّ الأنبياء (عليهم السلام) وأممهم ـ إلاّ في فترات قصيرة جداً ـ يجسدون هذه الحركة البشرية الدائمة حول محور الإلوهية..)"[١].

ويكون التكرار تأكيداً على هذا الهروب والالتجاء، باعتباره أنّه لا فرار منه إلاّ إليه! وهكذا يكون الهروب من الذنوب والآثام والخطايا والهوى والشيطان الذين هم سبب هلاك الإنسان وخسرانه.

لذا لا بد أن يكون الهروب هروباً حقيقياً بعزم وحزم دائم لا منقطع، وهذا ما يجب أن تنطوي عليه نية العبد، وإلاّ فالله تعالى الذي يعلم السر وما تخفي الصدور مطلع على حقيقة ما في قلبك وضميرك.

(واعلم أنّ الطواف المطلوب هو طواف القلب بحضرة الربوبية، وأنّ البيت مثال ظاهر في عالم الشهادة للإنسان الباطن، الذي لا يشاهد بالبصر، وهو في عالم الغيب، وأنّ عالم الملك والشهادة مرقاة ومدرج إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح

---

(١) مجلة ميقات الحج : العدد ١،ص٣٠٠. (بحث بعنوان دور الحج في ترسيخ السلام في العلاقات الاجتماعية).

له باب الرحمة، وأخذت العناية الإلهية يده إلى سلوك الصراط المستقيم.

وإلى هذه الموازنة وقعت الإشارة الإلهية : بأنّ البيت المعمور في السماء بإزاء الكعبة، وأنّ طواف الملائكة به كطواف الإنس بهذا البيت.

ولما قصرت مرتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف أُمروا بالتشبه بهم بحسب الإمكان، ووعدوا بأنّ مَنْ تشبه بقومٍ فهو منهم، ثم كثيراً ما يزداد ذلك التشبيه إلى أن يصير بقوة المشبه به، والذي يبلغ تلك المرتبة، فهو الذي يقال : إنّ الكعبة تزوره وتطوف به، على ما رواه بعض المكاشفين لبعض أولياء الله)[١] .

٤ـ ولتأكيد هذه النية وهذا العزم لا بد أن يضع الإنسان يده في يمين الله تعالى، التي رمز لها ـ(بالحجر الأسود)ـ، ويكون ذلك وعداً وعهداً وميثاقاً غليظاً يقطعه العبد على نفسه بحضرة ربه وخالقه، لكي تتم المعاهدة بينه وبين جبار السماوات والأرض، وعليه فأنّ نقضه يكون إثماً عظيماً وخطيئة كبيرة. وهذا ما تقوم

(١) مجلة ميقات الحج : العدد ٥،ص٣١ (بحث بعنوان أسرار الحج وأعماله الباطنية، مستل من كتاب شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني).

بالتأكيد عليه في كل شوط بقولك: (أمانتي أديتها وميثاقي تعاهدته).

ولكي يؤكد الإمام زين العابدين (عليه السلام) عظيم هذا الميثاق وخطورة هذه المعاهدة، صاح صيحة كاد يفارق الدنيا فيها، ثم تنهد ليشير إلى جانبٍ من خطورة هذا الأمر بقوله: **((من صافح الحجر الأسود فقد صافح الله تعالى، فانظر يا مسكين لا تضيع أجر ما عظم حرمته، وتنقض المصافحة بالمخالفة، وقبض الحرام نظير أهل الإثم)).**

٥ـ ولتأكيد هذه المعاهدة وهذا الميثاق لا بد أن يقف العبد عند مقام إبراهيم (عليه السلام)، ذلك الرجل الذي أرغم أنف الشيطان بمواقفه وكفاحه وطاعته لله تعالى، من خلال تلك الامتحانات الصعبة والقاسية التي أتمها وتجاوزها بنجاح، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[1].

فيقف الإنسان على ذلك الموقف مقتدياً ومتأسياً بذلك النبي العظيم، والعبد المطيع لربه، والمفارق وكل معصية لله.

---

(١) البقرة: ١٢٤.

٦ـ وكذا صلاة الطواف عند مقام إبراهيم (عليه السلام) لا بد أن تكون كصلاته التي كان فيها خاشعاً أوّاهاً، وكما نعته الله تعالى في القرآن الكريم بقوله: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ**﴾[1].

وفي الحديث عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: ((**الأوّاه المتضرع إلى الله في صلاته، وإذا خلا في قفرة في الأرض وفي الخلوات**))[2].

لا أن يصلي صلاة اللاهين الغافلين الذين ليس لهم من صلاتهم إلاّ شكلها، الذي لا يتجاوز الحركات والسكنات، المتمثلة في القيام والركوع والسجود، بل لا بد أن يصلي تلك الصلاة التي ترغم فيها أنوف الشياطين، وتطردهم عن قلب الإنسان وفكره وعقله.

٧ـ وكذا لا بد من التأكيد على هذا الميثاق الغليظ الذي قطعه الإنسان على نفسه بالتزام سبيل الطاعة، والبعد عن مستنقع

---

(١) هود : ٧٥.

(٢) تفسير القمي ، علي بن ابراهيم القمي ١ : ٣٠٦.

المعصية، وذلك عندما يشرف على بئر زمزم ويشرب منها، فينبغي أن يكون إشرافاً على الطاعة وغظّاً عن المعصية والحرام.

٨ـ وكذا السعي بين جبلي الصفا والمروة لا بد أن يكون سعياً بين الخوف والرجاء، الذي ينبغي أن يلازم الإنسان طوال عمره وحياته. لا الخوف من المخلوقين ولا رجاؤهم، بل هو الخوف من عذاب الله الأليم وحسابه العسير وسخطه العظيم و ... وكذلك الرجاء بكرمه وجوده ورحمته التي وسعت كل شيء، وعفوه الذي يشمل عباده التائبين والمتضرعين والمستغيثين به.

وهنا يقول الإمام زين العابدين (عليه السلام) وعقب كل عمل وفصل من أعمال وفصول الحرم: إنّه إذا لم تشتمل على هذه الأبعاد المعنوية الرفيعة فلا تعدو أن تكون حركات فارغة لا غاية ولا هدف منها، وعليه فكأنّها لم تكن عندما لا تتحقق أهدافها وغاياتها المرجوة ، إلاّ أن تؤدى خالصة لوجه الله تعالى وامتثالاً لأمره.

قال الإمام زين العابدين (عليه السلام): ((**فحين دخلت الحرم، نويت أنّك حرّمت على نفسك كل غيبة تستغيبها المسلمين من أهل ملة الإسلام؟**

قال: لا.

قال: **فحين وصلت مكة، نويت بقلبك أنّك قصدت الله؟.**

قـال: **لا.**

قـــال (عليه السلام): **فما دخلت الحرم، ولا رأيت الكعبة، ولا صليت.**

ثم قال: **طفت بالبيت، ومسست الأركان، وسعيت؟.**

قال: نعم.

قال (عليه السلام): **فحين سعيت نويت أنّك هربت إلى الله، وعرف منك ذلك علاّم الغيوب؟.**

قال: لا.

قال: **فما طفت بالبيت، ولا مسست الأركان، ولا سعيت.**

ثم قال له: **صافحت الحجر، ووقفت بمقام إبراهيم وصليت به ركعتين؟.**

قال: نعم.

فصاح (عليه السلام) صيحة كاد يفارق الدنيا. ثم قال: آه آه ـ

ثم قال (عليه السلام): **من صافح الحجر الأسود، فقد صافح الله تعالى، فانظر يا مسكين لا تضيع أجر ما عظم حرمته، وتنقض المصافحة بالمخالفة، وقبض الحرام نظير أهل الاثام.**

ثم قال (عليه السلام): **نويت حين وقفت عند مقام إبراهيم أنك وقفت على كل طاعة، وتخلفت عن كل معصية؟.**

قال: لا.

قال: **فحين صليت فيه ركعتين، نويت أنّك صليت بصلاة إبراهيم (عليه السلام)، وأرغمت بصلاتك أنف الشيطان؟.**

قال: لا.

قال له: **فما صافحت الحجر الأسود، ولا وقفت عند المقام، ولا صليت فيه ركعتين.**

ثم قال (عليه السلام) له: **أشرفت على بئر زمزم، وشربت من مائها؟.**

قال: نعم.

قال: **نويت أنّك أشرفت على الطاعة، وغضضت طرفك عن المعصية؟.**

قال: لا.

قال (عليه السلام): **فما أشرفت عليها، ولا شربت من مائها.**

ثم قال له (عليه السلام): **أسعيت بين الصفا والمروة، ومشيت وترددت بينهما؟.**

قال: نعم.

قال له: **نويت أنك بين الرجاء والخوف؟.**

قال: لا.

قال: **فما سعيت، ولا مشيت، ولا ترددت بين الصفا والمروة))**[1].

(١) مستدرك الوسائل ١ : ١٦٧.

الأبعاد المعنوية في عرفات

وهنا يبدأ الإمام زين العابدين (عليه السلام) ببيان الأبعاد المعنوية التي تنطوي عليها أعمال وفصول الحج، بعد إشارته للأبعاد المعنوية المنطوية عليها في أعمال العمرة.

فالخروج إلى منى بعد الإحرام للحج يوم الثامن من ذي الحجة ـ والذي هو من المستحبات ـ لا بد أن يكون متضمناً للأمان للناس من شر اللسان واليد، وحتى القلب من أن يصلهم أذىً أو شر، وإلاّ فما قيمة العبادة إنْ لم تساهم في تهذيب وترويض النفس؟ وما قيمة العبادة التي تزيد في شر الإنسان وإيذائه للآخرين فضلاً من أن تحد منه؟ لا سيما في تلك المواقف والمشاهد المزدحمة التي يتكالب الناس بعضهم على بعض، فيتعرف الإنسان حينها على حقيقة توجهه لله عزّ وجلّ وإقباله عليه.

وإلاّ فالعبد الذي يكون في خدمة وحضرة سيده ومولاه، من البعيد أن يتصرف بما لا يليق برسم العبودية وآدابها، أو يكون منشغلاً بغير خدمته وأداء أوامره واجتناب نواهيه.

أمّا أن يكون في ذلك المقام يشتم هذا ويلعن ذاك ويضرب أحداً ويزاحم آخر و... فكل ذلك مما لا يليق بالعبودية وآدابها.

١ـ وكذا لا بد أن يعرف الإنسان عظمة ذلك المكان الذي سمي (عرفة) وما يتضمنه من رموز ومعانٍ رفيعة.

ذلك المكان الذي يطلع فيه ربّ العالمين على عبادة، ويباهي بهم الملائكة.

ذلك المكان الذي تصب فيه الرحمة صباً، ويتفضل فيه الله تبارك وتعالى ويجود فيه على عباده بما لا يكون منه في زمان آخر يشبه ما يكون في ذلك.

ذلك المكان الذي لا تغفر بعض الذنوب والآثام إلاّ فيه، كما ورد في الحديث عن الإمام الصادق عن آبائه (عليهم السلام)، عن النبي (صلى الله عليه وآله)، قال: ((**من الذنوب لا تغفر إلا بعرفات**))[1].

ويبقى كل ذلك الفضل والكرم وكل تلك الرحمة والمغفرة لمن عرف حرمة ذلك المكان عند الله تعالى، وعرف ربه فيه وأحسن الظن به.

---

(١) الحج في السنة : ٢١٩.

من هنا يكون أعظم العباد ذنباً هو الذي يغادر ذلك المكان ويظن أنّ الله عز وجل لم يغفر له ويتجاوز عنه فيه، كما ورد في الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) في جواب عن سؤال: أي أهل عرفات أعظم جرماً؟ قال: ((**المنصرف من عرفات وهو يظن أنّ الله لم يغفر له**))[١].

ذلك المكان الذي لا بد أن يستحضر العبد فيه أهم المعارف الدينية، من معرفة الله تعالى وعدله وكرمه ورحمته وسخطه وعذابه، وأنّ بيده صحيفة أعمال العبد، وهو مطلع على ما فيها من خير وشر، وأنّه يعلم ما يسره الإنسان، وكيف لا يكون كذلك وهو الذي يحول بين المرء وقلبه قال تعالى: ﴿**وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾[٢].

وهو ولي كل مؤمن ومؤمنة، وأنّه يختار ما كان لهم الخيرة والصلاح في الدنيا والآخرة.

---

(١) الحج في السنة : ٢٣٥.

(٢) الأنفال : ٢٤.

٢ـ وكذا حينما يمر الإنسان على (نمرة) ذلك المكان الواقع في حدود عرفة، الذي لا بد أن ينوي أنّه قد حسم موقفه من الطاعة، فلا يأتمر إلاّ بأمر ولا ينزجر إلاّ بزجر، وهذا أجلى مظاهر العبودية التي تسير وفق الأوامر، وتنتهي وتنزجر حينما يكون هناك نهي وزجر.

٣ـ وكذا حينما يفيض من عرفة ويأخذ طريقه إلى المشعر الحرام، ويمر عند العلم أو العلامة التي توضح حدود تلك البقاع المقدسة، لا بد أن يعتقد أنّها تشهد له عند الله تعالى بالحضور والطاعة، وحافظة للعبد مع ما عنده من الحفظة من كيد وشر مردة الجن والإنس.

قال الإمام زين العابدين (عليه السلام): ((**أخرجت إلى منى؟**.

قال: نعم.

قال: **نويت أنّك آمنت الناس من لسانك وقلبك ويدك؟**.

قال: لا.

قال: **فما خرجت إلى منى**.

[ثم] قال له: **أوقفت الوقفة بعرفة، وطلعت جبل الرحمة، وعرفت وادي نمرة، ودعوت الله سبحانه عند الميل والجمرات؟**.

قال: نعم.

قال: هل عرفت بموقفك بعرفة معرفة الله سبحانه أمر المعارف والعلوم، وعرفت قبض الله على صحيفتك واطلاعه على سريرتك وقلبك؟.

قال: لا.

قال: نويت بطلوعك جبل الرحمة أنّ الله يرحم كل مؤمن ومؤمنة، ويتولى كل مسلم ومسلمة؟

قال: لا.

قال : فنويت عند نمرة أنّك لا تأمر حتى تأتمر، ولا تزجر حتى تنزجر؟.

قال : لا.

قال: فعندما وقفت عند العلم والنمرات، نويت أنّها شاهدة لك على الطاعات، حافظة لك مع الحفظة بأمر السموات؟.

قال: لا.

قال: فما وقفت بعرفة، ولا طلعت جبل الرحمة، ولا عرفت نمرة، ولا دعوت، ولا وقفت عند النمرات))[1]

(١) مستدرك الوسائل ١ : ١٦٩.

الابعاد المعنوية في المشعر الحرام

١ـ وكذا حينما يفيض الحاج ويصل عند حدود المشعر الحرام (العلمين) لا بد أن يصلّي ركعتين شكراً لله وحمداً على توفيقه له للحج، وقضاء الحج الأكبر (عرفة)، والوصول والحضور في تلك البقاع الطاهرة، لا سيما على الحضور ليلة العاشر من ذي الحجة في المشعر الحرام، التي تجمع بين فضيلتي المكان والزمان.

فتلك الليلة ليلة الذكر والشكر، والمكان مكان الفضل والجود. والكرم والمغفرة والرحمة. قال تعالى: **﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ﴾**[1].

وفي الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام): ((... **وأنّ أبواب السماء لا تغلق تلك الليلة لأصوات المؤمنين، لهم دوي كدوي النحل، يقول الله عزّ وجلّ: أنا ربكم وأنتم عبادي أديتم حقي وحق عليّ أن استجيب لكم، فيحط تلك عمن أراد أن يحط عن ذنوبه، ويغفر لمن أراد أن يغفر له...**))[2].

---

(١) البقرة : ١٩٨.

(٢) الحج في السنة : ٢٤١.

كما يتوجه بتلك الركعتين لله عز وجل بأنْ ينفي عنه كل عسر وييسر له كل يسر ما اتصلت أيامه وامتدت لياليه.

٢ـ وكذا عند وصوله للمشعر الحرام لا بد أن يشعر نفسه بالتقوى والإيمان والخوف من الله عزّ وجلّ.

قال الإمام زين العابدين (عليه السلام): ((**مررت بين العلمين. وصليت قبل مرورك ركعتين، ومشيت بمزدلفة، ولقطعت فيها الحصى، ومررت بالمشعر الحرام؟**

قال: نعم.

قال: **فحين صليت ركعتين، نويت أنّها صلاة شكر في ليلة عشر، تنفي كل عسر، وتيسر كل يسر؟**

قال: لا.

قال: **فعندما مشيت بين العلمين ولم تعدل عنهما يميناً وشمالاً، نويت أنْ لا تعدل عن دين الحق يميناً وشمالاً لا بقلبك، ولا بلسانك، ولا بجوارحك؟**

قال : لا.

قال: **فعندما مشيت بمزدلفة، ولقطت منها الحصى، نويت أنّك رفعت عنك كل معصية وجهل، وثبت كل علم وعمل؟**

قال: لا.

قال: **فعندما مررت بالمشعر الحرام، نويت أنّك أشعرت قلبك إشعار أهل التقوى والخوف لله عز وجل؟.**

قال: لا.

قال: **فما مررت بالعلمين، ولا صليت ركعتين، ولا مشيت بالمزدلفة، ولا رفعت منها الحصى، ولا مررت بالمشعر الحرام))**[1]

(١) مستدرك الوسائل ١ : ١٧٠.

الأبعاد المعنوية في منى

١ـ وكذا حينما يصل الإنسان إلى منى ويؤدي أعمالها لا بد أن يتيقن أنّ بوصوله وقضائه أعماله قضى الله تعالى له كل حاجة.

وكيف لا يكون ذلك وقد سميت منى بـ (منى) لأن جبرئيل قال للنبي إبراهيم (عليه السلام) : تمنى.

ففي الحديث عن الإمام الرضا (عليه السلام) عن العلة التي من أجلها سميت منى منى: ((**إنّ جبرئيل (عليه السلام)، قال: هناك يا إبراهيم، تمنى على ربك ما شئت...**))[1].

٢ـ وكذا حينما يقوم برمي الجمار ـ و هو العمل الأول من أعمال منى ـ لا بد أن يتجاوز ظاهر ذلك العمل الذي يبدو للبعض مضحكاً، وينوي أنّه يرمي الشيطان الغوي الرجيم، متأسياً بالنبي إبراهيم (عليه السلام) حينما تمثل له الشيطان فرماه بسبع حصيات.

ففي الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن أبيه، عن عليّ (عليهما السلام): ((أنّ الجمار إنّما رميت لأنّ جبرئيل حين أرى إبراهيم (عليه السلام) المشاعر برز له إبليس، فأمره

---

(١) الحج في السنة : ٢٤٩.

جبرئيل أن يرميه فرماه بسبع حصيات، فدخل عند الجمرة الأولى تحت الأرض فأمسك، ثم إنّه برز له عند الثانية فرماه بسبع حصيات أُخر، فدخل تحت الأرض في موضع الثانية، ثم برز له في موضع الثالثة فرمي بسبع حصيات، فدخل في موضعها))[١].

(والأحاديث الإسلامية بينّت ماهية هذا العمل بقولها: إنّ الشيطان قد تجسد لسيدنا إبراهيم (عليه السلام) في الأماكن الثلاثة هذه، ورجمه إبراهيم في الأماكن الثلاثة هذه، ورجمه إبراهيم بالحجر ليظهر تنفره منه. وبقي عمل إبراهيم هذا سنة إلهية في أعمال الحج.

إنّ حجاج بيت التوحيد، وإظهاراً لنفرتهم من الشيطان والشياطين، يرجمون تلك النقطة بالحجر تعبيراً عن إبراهيميتهم. وبهذا الشكل فإنّهم يعبرون عن غضبهم من كل موجود شرير خبيث ونجس. وأنّهم يعبرون عن النفرة من النجاسة ـ وهي أمر معنوي وقلبي ـ بهذه الطريقة بشكل ملموس ومحسوس.

واليوم فإنّ الشعوب المستضعفة، التي تعاني من الظلم والجور، تقوم بإحراق أعلام الدول المستكبرة السلطوية، والعلم ليس أكثر من بضعة أمتار من القماش الملون، إلاّ أنّ الشعوب

---

(١) حج الأنبياء والأئمة : ٤١.

ـ ومن أجل إظهار غضبها تجاه الفضائح والجرائم التي ترتكبها القوى العظمى ـ تقوم بإحراق رموزهم، وكأنّهم قاموا بإحراقهم وإبادتهم والقضاء عليهم، وعلى الأقل فإنّ هذا العمل يبين انزعاجهم الشديد من أولئك الظلمة)[١].

٣ـ وكذا لا بد أن يلتفت الإنسان إلى أنّه بحلقه لشعر رأسه ـ و هو العمل الثاني من أعمال منى ـ قد طهر من كل دنس ومن تبعة بني آدم من الجن، الذين هم كثيرون، والذين كانوا أحد أسباب إيذاء الإنسان وإغوائه.

والنتيجة من كل ذلك أنّه بحلقه قد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وقد شملته دعوة النبي (صلى الله عليه وآله)، كما في الحديث عن الإمام علي (عليه السلام): ((**أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: اللهم ارحم المحلّقين. فقيل يا رسول الله، والمقصرين؟ فقال: اللهم ارحم المحلّقين. فقيل: يا رسول الله، والمقصرين؟ فقال (صلى الله عليه وآله): والمقصرين في الرابعة....**))[٢].

---

(١) مجلة ميقات الحج : العدد ٣، ص٤٩. (بحث بعنوان أضواء من أسرار الحج).

(٢) حج الأنبياء والأئمة : ١٩١.

٤ ـ وكذا حينما يصلي في مسجد الخيف ـ الذي هو من المستحبات المؤكدة ـ لا بد أن يكرّس في نفسه الخوف من الله عزّ وجلّ، ويطهر نفسه من الخوف من المخلوقين، وكذا الخوف من الذنوب التي تودي بالإنسان في نار جهنم. ولا يرجو أحداً إلا الله تبارك وتعالى ورحمته، لأنه هو الأحق بالخوف والرجاء دون أحد سواه.

٥ ـ وكذا حينما يذبح الحاج هديه لا بد أن يكون هذا القربان رمزاً لذبح الطمع والجشع، وما في الدنيا من زخرف وملذات تستحوذ على قلب الإنسان.

فالتضحية في الدم تعتبر (كرمز عن التضحية بالشهوات والمطامع والمطامح الدنيوية والدنيئة في سبيل الله سبحانه، فإنّ المهم الحقيقي هو أن يذبح الفرد نفسه الأمارة بالسوء تجاه قدس الله عزّ وجلّ وعظمته، تلك النفس التي تكون سبباً لكل عصيان وطغيان، ويكون القضاء عليها سبباً لكل خير وكمال)[١].

(١) ماوراء الفقه : ٢: ٢٧٩.

وهنا ولتأكيد هذه الحالة لا بد أن يستحضر الحاج قصة النبي إبراهيم (عليه السلام) حينما أمره الله تعالى عن طريق الرؤية أنْ يذبح ابنه امتثالاً وفداءً لله عزّ وجلّ، وكيف أنّ ذلك الشاب ـ إسماعيل ـ الذي كتب الذبح عليه كان في أتم الاستعداد والتضحية لأن يقدم نفسه قرباناً لله عزّ وجلّ بين يدي أبيه. قال تعالى : **﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾**(1).

والإنسان بذلك القربان يكون قد أحيا هذه السنة الخالدة، التي شاء الله تعالى أن تبقى إلى آخر يوم من الدنيا

٦ـ وكذا حينما ينتهي من مناسك منى يقفل راجعاً لمكة ليؤدي فيها طوافين وسعياً.

والمهم هو طواف الحج أو طواف الإفاضة، الذي لا بد أن يستحضر الإنسان فيه أنّه أفاض من رحمة الله تعالى، ورجع إلى طاعته، وتمسك بوده ومحبته، وذلك كله لأداء فرائضه والتقرب بها إليه.

---

(١) الصافات : ١٠٢.

قال الإمام زين العابدين (عليه السلام): ((وصلت منى ورميت الجمرة، وحلقت رأسك، وذبحت هديك، وصليت في مسجد الخيف، ورجعت إلى مكة، وطفت طواف الافاضة؟.

قال: نعم. قال: فنويت عندما وصلت منى، ورميت الجمار أنّك بلغت إلى مطلبك، وقد قضى ربك لك كل حاجتك؟.

قال: لا.

قال: فعندما رميت الجمار، نويت أنّك رميت عدوك إبليس وغضبته بتمام حجك النفيس؟

قال: لا.

قال: فعندما حلقت رأسك نويت أنّك تطهرت من الأدناس ومن تبعة بني آدم، وخرجت من الذنوب كما ولدتك أمك؟

قال: لا.

قال: فعندما صليت في مسجد الخيف، نويت أنّك لا تخاف إلاّ الله عز وجل وذنبك، ولا ترجو إلاّ رحمة الله تعالى؟.

قال: لا.

قال : فعندما ذبحت هديك، نويت أنّك ذبحت حنجرة الطمع بما تمسكت به من حقيقة الورع، وأنّك اتبعت سنة إبراهيم (عليه السلام) بذبح ولده وثمرة فؤاده وريحانة قلبه، وأحييت سنته لمن بعده، وقربه إلى الله تعالى لمن خلفه؟.

قال: لا.

قال: **فعندما رجعت إلى مكة وطفت طواف الإفاضة، نويت أنّك أفضت من رحمة الله تعالى ورجعت إلى طاعته، وتمسكت بوده، وأديت فرائضه، وتقربت إلى الله تعالى؟**

قال: لا.

قال له زين العابدين (عليه السلام): **فما وصلت منى، ولا رميت الجمار، ولا حلقت رأسك، ولا أديت نسكك، ولا صليت في مسجد الخيف، ولا طفت طواف الإفاضة، ولا تقربت، فإنك لم تحج))**[1]

هذه مجموعة أعمال وفصول هذه العبادة العظيمة التي هي ليست مجرد طقوس وشعائر لا روح فيها ولا معنى، بل على العكس من ذلك، فهي كلها روح ومعانٍ سامية ورفيعة، تنتشل الإنسان من عالم المادة المقيت إلى عالم الروح الرحب، ليجد هناك اللذة الحقيقية لما يعيشه من معان سامية.

أمّا الذي لا يرقى إلى هذا العالم ويعيشه ولا يشعر بلذة العبادة وسموها، وبذلك يكون كمن لم يؤدها، وذلك بعد فشله في تحقيق أهدافها وغاياتها.

(١) مستدرك الوسائل ١ :١٧١.

لذا لا نتعجب حينما نعرف أنّ الشبلي الذي كشف له الإمام زين العابدين (عليه السلام) جانباً من حقيقة هذه العبادة، وأزاح عنها الستار الظاهري، كيف أنّه أخذته الحسرة والندم، فطفق يبكي على عظيم ما فاته وما فرطه في حجه، فراح يتعلم ويتدرب على هذه المعاني الرفيعة ليحلق في فضاء ذلك العالم الرحب. إلى أنْ حج من قابل بمعرفة ويقين فعرف حقيقة ما كشفه له الإمام زين العابدين (عليه السلام)، وهذا ما أشارت إليه الرواية الشريفة. (فطفق الشبلي يبكي على ما فرطه في حجه، وما زال يتعلم حتى حج من قابل بمعرفة ويقين)[1].

(١) مستدرك الوسائل ١: ١٧١.

المصادر

- القرآن الكريم.
- **بحار الأنوار** ....العلامة المجلسي
- **وسائل الشيعة** ....الحر العاملي
- **مستدرك الوسائل** ....المحدث النوري
- **علل الشرائع** ....الشيخ الصدوق
- **عيون أخبار الرضا** ....الشيخ الصدوق
- **تفسير القمي** ....علي بن إبراهيم القمي
- **تفسير مجمع البيان** ....الشيخ الطبرسي
- **تفسير الميزان** ....السيد محمد حسين الطباطبائي
- **تفسير الأمثل** ....الشيخ ناصر مكارم الشيرازي
- **جواهر الكلام** ....الشيخ محمد حسن النجفي
- **ما وراء الفقه** ....السيد محمد صادق الصدر
- **الفتاوى الواضحة** ....السيد محمد باقر الصدر

● **جامع السعادات** ....الشيخ محمد مهدي النراقي

● **الحج ضيافة الله** ....السيد محمد تقي المدرسي

● **أسرار الحج** ....الشيخ عبد الله جوادي آملي

● **مجلة فقه أهل البيت (عليهم السلام)**

● **مجلة ميقات الحج.**

● **الحج في السنة** معاونية شؤون التعليم والبحوث الإسلامية في الحج .

● **حج الأنبياء والأئمة.** معاونية شؤون التعليم والبحوث الإسلامية في الحج .

فهرس المحتويات